مؤيد الشيباني

عزف على خشب السدر

قراءة ميدانية في المكان
بدولة الامارات العربية المتحدة

عزف على خشب السدر

منشورات اتحاد كتاب وادباء الامارات

الطبعة الاولى

١٩٩٤

تصميم الغلاف والاخراج الفني: محمد فهمي / ت: 232750 ـ دبي

المقدمة

المكان .. سدرة قديمة..

الزمان.. ذاكرة مفتوحة على العلاقة والناس والأسئلة..

غواصون في استراحة العمر، بيوت نصف واقفة، أسواق بعرض مترين، وشعر شعبي مجهول قائله. وذلك القوي الوحيد النازل من جبال خورفكان الى غرفته والوحيدة حيث يضع على الرف ذاكرة المائة عام ويرقد رقدته الأخيرة.

هل ذلك هو المكان؟

ثمة سؤال اخر يليق بهذا النبض الذي لا يرى بعين «الكونكريت» وحداثة الشارع والأضواء..

كيف نخرج من المدينة دونما قطعة من خشب السدر نحك بها جلودنا المغطاة بتعب الاغتراب؟

ونحن فوق المدينة كيف لا نرى من نافذة الطائرة، ذلك البرج الطيني الواقف حارسا امام الأزرق المجهول؟

ثم كيف نخرج من آذان الميكروفون الالكتروني دون أن نصلي

في ذلك المسجد العاري من المئذنة؟

بهذا الحنين، وهذه الاسئلة، تفجرت اللهفة الى المكان ـ خصوصية واصالة ومعنى له بعد متميز ـ هنا في الامارات العربية المتحدة.. فتسرب الشعر الى السطور وانا اتجول ميدانياً بين ساحل وقلعة وبرج ومتحف، حتى أكاد احتار في دوامة التسابق بين الشعر والمعلومة، بين المكان ووجوه المكان، وبين اغاني المهد الاول لطفولتي واغاني الامان ودفء المهد الاول لطفولة ابنتي..

هذه الارض.. لي فيها اصدقاء وأمكنة..

ومكتبة وأناس يسألون عن الحال..

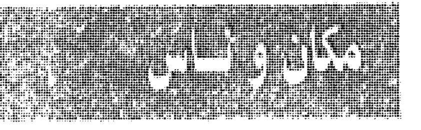
ومدرسة أمر من امامها فأسمع صوت ابنتي تقرأ..

لي فيها علاقة وعلامة وفكرة وانشغالات..

أنا الآن في رأس الخيمة، ماذا عساني ان احب اكثر وانا في جلفار، وانا الآن في دبي هل بعد ذلك من توأم لحرية الروح والوقت؟

انا الآن في أبوظبي والعين والفجيرة والشارقة اضحك مع الصيادين وصانعي المراكب الخشبية الصغيرة وهم يروون حكاياتهم..

فالى الامارات العربية المتحدة، الى اهلها، الى الاصدقاء الطيبين، الذين يحتضنون لهفة الملهوف، ويفرشون امامه ابتسامتهم ليستريح.. الى أهلي هنا وهناك.. أهدي هذا الكتاب..■


مكان و ناس



مكان وناس

الظلام يفرش جناحيه على المكان، والبحر يمتد بعيداً في المجهول، تحده عبر الساحل صحراء موغلة في الرمال، لا شيء سوى بيوت طينية قليلة متقاربة تطل بنوافذها الضيقة على البحر، وصوت الموج يتهادى مع نجمة تلمع في سماء السكون، بينما ينصت الجميع لحديث المطوع ابراهيم بن صالح بن طاهر:

«كنا في محمل سيف العبدولي. وذات يوم من أيام الغوص كنت أقف الى جانب النوخذة على ظهر المحمل (السفينة) فإذا بالرجال قد سحبوا خمسة من الغواصين وكأنهم قطع من الخشب. كانوا متيبسين تماما، فصرخ النوخذة: ارفعوهم الى ظهر السفينة حتى يقرأ عليهم المطوع. لكنني سرعان ما اعترضت وأمرت بان يبقوا معلقين في صف واحد على حافة السفينة.. كنت احمل عصا محنية الطرف، فقرأت عليها آيات من القرآن، ثم بللت ذلك الطرف المنحني من العصا بريقي ووضعته في أذن احدهم وبدأت انفخ في العصا، وما هي إلا لحظات حتى صرخ الجني الذي كان متلبسا

ذلك الغواص وقال: دخيل الله يا شيخ سأخرج وسأتركه. وظللت انفخ حتى أخذت من الجني عهد الله وميثاقه بألا يقترب من الغواص الذي سيمارس عمله ليل نهار في البحر، وإلا فإنه سيعاقب بكلام الملك العلام. وحين يتحرر الغواص من الجني ويعود الى قاع البحر لممارسة عمله يأتي دور الغواص الثاني وبعده الثالث والرابع والخامس».

هل يبدو ذلك المشهد آتيا من عمق التاريخ؟ هكذا هو للوهلة الاولى، لكنه في الحقيقة لا يبتعد كثيرا عن الحاضر، انه هنا قبل نصف قرن، ومازال بعض اهله يتذكرونه الآن. فالخمسون عاما ليست كافية لمحو الذاكرة، لكنها كانت كافية لكي تعبر الامارات من زمن الى آخر: زمنان مختلفان يفصل بينهما سؤال كبير في الثقافة والمجتمع والاقتصاد والتعليم ويوميات الحياة العامة بكل أبعادها، ذلك السؤال الذي حير زائري المنطقة من الباحثين عن المجهول في قرى صغيرة ومدن قروية تسمى أبوظبي ودبي والشارقة ورأس الخيمة وعجمان وأم القيوين والفجيرة، فيعودون الى بلدانهم يرددون سؤالا واحدا: كيف يعيش هؤلاء الناس في هذه المنطقة؟ لكن هؤلاء الناس كانوا ينظرون الى حياتهم بكثير من الرضى والتكيف مع معطيات الصحراء والبحر. فقد خابت آمال مبعوثي الإرسالية الأميركية في هذه المدن وعادوا بفشل ذريع في مهمتهم التبشيرية. يقول احد المبشرين (جميس مويرديك): قمنا بزيارة إمارة عجمان. وقد طفناها كلها شارعا شارعا من دون ان نبيع كتابا واحدا، واضطررنا الى مغادرتها بحمولة الكتب نفسها التي جئنا بها. وبعد رجوعنا الى الشارقة جلسنا أمام كوخ

وعـرضنا كـتبنا كالعادة، واستطعت في هذا اليوم بيع انجيل واحد بـ 20 سنتـا امـريكيـاً. وفي مـدينة الحـمرية دعانا احد شيوخها، وبعد أصول الضيافة العربية فوجئنا بذلك الرجل وحكمته وقدرته على الحـوار، قـال لنا: اننا نعترف بان المسـيح عليـه السلام كان رسولا صـادقا لله، ولكن هل انتم تعترفون بأن محمداً كان رسـولا صـادقا؟

لم تكن المدرسـة قد أوصلت هذ الرجل الى ما هو عليه من فـهم وحجة في معتقداته، بل لم تكن المدرسة موجودة أصلا، سوى ذلك «المطوع» الجـالس في بيتـه الطيني او في ركن من أركـان المسـجد الصـغير، بينما الصـغـار من حـوله ينظرون الى العصا بيده وهو يردد بعض العـبـارات او الآيات القرآنية وهم يرددونها من بعده، حـفـاة يفترشـون الحـصير، والى جـانب كل واحـد بعض الخبز والتمر لوقت الفرصة. هذه الصورة كانت منتشرة في كل الامارات، وقـد أوصلت الناس الى فـهم اولي للقراءة والكتابة، كما حصل مع مـصـبح بن عـبيد الظاهري صاحب اول مجلة حائط في الامارات قـبل 45 سنة: «في مدينة العين فتحت اول مقهى شعبي، ثم اقمت الى جـانبـه دكـانا لبيع «النخي» أي الحمص قبل طحنه، ولاحظت بعـد مـرور اكـثـر من شهر ان الاقبال على هذه البضاعة ضعيف جـدا، فخطرت لي فكرة غير عادية؛ ذهبت الى مجلس الشيوخ حيث أتردد كـثيراً، واحضرت ورقـة كـبيرة من تلك التي كـانت تصلهم ويسـتـخـدمونها لكتابة «الخطوط» اي الرسائل، وعدت الى الدكان لأكـتب على رأس الورقة عنوانا يقول: هذه مجلة النخي، ولم نكن يومـهـا نعـرف الصـحـيـفة أو المجلة أو التلفزيون. ثم كتبت على

الورقة وصفا لفوائد النخي الذي يعيد الشباب الى كبار السن ويخلص الانسان من الأمراض وما الى ذلك. ثم علقت الورقة على باب الدكان، فبدأ الذي يجيد القراءة يقرأ للذي لا يجيدها». ومع هذا المقهى والدكان توسعت تجارة مصبح بن عبيد الظاهري، فجاء بأول جهاز راديو من نوع «باي». وحينما بدأ ينطق وسط جمهور المقهى اعتقد البعض أنه سحر وخداع.

ومع خروج التعليم الى آفاقه الواسعة خرجت القرى الى المدن الحديثة، وبدأت المشاريع الضخمة تأخذ فرصتها في إنشاء مساحة واسعة من الحركة والبناء والتطور. لقد انتقلت الحياة الى مرحلة جديدة مودعة زمن الغوص والبحث عن اللؤلؤ في قاع البحر، حيث كانت هذ المهنة تشكل مصدر العيش الوحيد في الامارات بين غواص ونوخذة وطواش ونهام، وبين مهن صغيرة يدوية متناثرة في أسواق قديمة مسقوفة بالخشب وسعف النخيل تشهد كل موسم نزول اعداد كبيرة من البدو، يأتون من مناطق بعيدة ومعهم بضائعهم التي يبادلونها ببضائع اخرى. ولم يبق من هذه الأسواق اليوم الا القليل؛ حيث امتدت اليها حملات البناء والعمران الحديث. وكان للحركة التجارية المنظمة، كبديل للحياة الاولى، أثر كبير في تسريع الانفتاح، حيث شهدت مدن أبوظبي ودبي والشارقة حركة تجارية واسعة قبل ظهور النفط؛ من خلال الرحلات الى افريقيا وايران والهند والبصرة. ثم بدأ تدفق النفط وبدأت معه الصورة تتشكل في اتجاه الحياة الجديدة.

عندما ينزلون الى المدن والموانيء البعيدة للتسوق وتبادل البضائع، كان سكان تلك المدن يسمونهم «أبناء البحر». هؤلاء

القـادمون من الامارات، المحملون برائحة الماء سرعان ما يعودون اليـه بأشـواقـهم وأحـلامـهم ومجاذيفـهم، يحاورونه بالأغـاني و«اليامال»، وصولا الى ساحل الأهل، لتبدأ من جديد رحلة الغوص التالية.

الإمـارات والبـحـر توأمان، من رحم العلاقة الواحدة والمصير الواحـد، لا شيء خـارج البـحـر يوفر لقمة العيش، ولاشيء يرضي الحـبـيـبة غير تلك «الدانة» النائمة في الاعماق. سمك في السواحل، ولؤلؤ في الداخل، ومـا بينهما تسـبح الحـياة اليومية ذهابا وإياباً حـتى مطلع النفط. لقـد تغيرت تلك العـلاقـة مع البحر، ذلك الأب الكبير الذي يعـرف اهل الامـارات قـسـوته وابتـسـامته وعطاءه وبخله. لم يعـد كما كـان قبل خمسين عاما؛ هجره الغواصون الى لؤلؤة جـديدة تسـقط في اليـد من فـضـاء التطور واتسـاع العمل الجديد.

يتذكر حسن سعيد النعيمي، وهو يتحدث بشغف وحرص على تدوين مـا يقـول: «لم نكن نخاف البحر، كنا نصادقه ونعرف كل شيء عـنه: مناطقـه، خيراته، هواءه.. وإذا هب الهـواء الشمالي نلجأ فورا الى جزيرة قريبة، نختبيء هناك في داس أو دلما أو شراعوه او أبو موسى أو أم الشيف أو ياسر أو أبو الحنين أو الجوكي أو أبو العـروق. كلهـا جـزر نعرفها ونحوم حولها. ومع ذلك لا مفر من الموت احـيانا، بل لا بد من أن يأخذ احدنا وهو في العمق، أو فوق المركب. سـاعتها يسود الحزن ونحن نلفه بقطعة قماش، ثم نذهب بعـيـدا في الأعماق لننزله ببطء بعـد الصلاة عليه ويذهب الى حيث تتـقاذفه الأمواج. لامجال بعد ذلك للحزن، فالنوخذة يصرخ: أريد

عملا، هيا.. ليذهب كل واحد الى عمله، أما فلان فليرحمه الله».

كـان النوخـذة يجلس في صـدر «البـوم»، بينما الغـواصون في العـمق بحـثـا عن الحلم الضائع بين الأحجار والوحوش البحرية والامـواج العـاتيـة. هكذا يصـيح «النهـام» بصوته المبحوح: «دار الخير والمحـار وأبرك دار». ثم تبدأ عملية الفلق حيث أكوام المحار والطريق الى «القـفال» العودة، ليجد الغواصون من يستقبلهم على السـاحل بالزغاريد والأغاني والطبول. بعضـهم نزل الى البحر ولم يعـد، وبعـضـهم عـاد بخـفي حنين، والبـعض الآخر حقق احلام الاسرة برزق وطعام وهدايا.

النهـام عـبـيد إبراهيم السويدي يضع يده على وجهه ويصيح «دار الهوا شامي يا بو عبد الله». غناء كالبكاء يحذر من ان الهواء أصـبح شمالياً: «هناك انواع للنهـمـة حسب المرحلة، حيث بداية النزول الى البـحر، والتوغل في الأعماق إيذانا ببدء مرحلة الغوص، ثم رفع الشراع أو خـفـضـه، ثم العودة. ولكل مرحلة غناء مختلف يتراوح بين الحزن والفرح».

البـوم، الشـوعي، الجـالبوت، وعشرات الاسماء لمراكب الصيد والسـفـر والتـجـارة والغوص كانت تصنع على مقربة من البحر، ومنها جاء لقب «الجلاف»، اي الذي يصنع السفن ويصلحها وهي مهنة «الجلافة». ومن اشهر الجلاليف في دبي أحمد بن عبود، ذلك هو العمل الوحيد لمن يفضل البقاء خارج البحر. بينما تمتد البيوت في تقـارب حميـمي أمـام الماء بحثا عن نسمة هواء تخترق الجسد الملتـهب بنار الصـيف وحـرارة شـمس الظهيرة. وفي طرف المكان

يستلقي المقهى على الرمال، وبين أخشابه المتهالكة يجلس المتعبون في استراحــة المحــارب، حــديث عن الزواج، عن الغـريب القادم من البلد البـعـيـد، عن مكان جـديد اسمه اليابان يصنع اللآلىء دونما حــاجـة الى الغــوص في أعماق المجهول. لقد توقف العمل ولم يعد هناك مـعنى للبـحث عن الدانة مـادام الحـصول عليها اصبح على اليابسة.

«لكن مـا فـائدة هذا الزمن الجـديد مـادامت تلك الايام أخـذت العـيـون؟».. هكذا يردد مـبارك بوهمام الذي فقد بصره في البحر: «كنت غـواصــا ماهرا، اعرف اين تختبىء اللؤلؤة، لكنني ذات يوم فـوجئت بـمـرض في عـيني. لم يكن هناك مجال للعـلاج، فـالكل مـصــاب بالتراخـومـا التي تنهش العـيون من دون رحمة. تركت الامـر، لكنه تضــاعف حـتى أصـبـحت الرؤية قريبة من الصفر، وعندمـا دخلت الدنيا مرحلة جديدة من الحياة الاقتصادية اخذني الاولاد الى عشرات الاطبـاء. لكن المرض كـان قـد تمكن جيدا، ولم تعـد هناك فـائدة سـوى امل بسـيط بنجاح العملية، وبعد العملية بأيام ذهب كل شيء وأصـبـحت الرؤية في درجـة العمى الحقيقي. هل تريدون ان اتحـدث عن أيام الغوص؟». يشجعه جمعة ابراهيم السويدي (من جيل ما بعد مرحلة الغوص) على مواصلة الحديث، لكنه يسـمـع فـجأة صـوت الأذان فـينهض مسرعا باتجاه المصلى لكأنه يرى الطريق بوضوح.

ولم يـتردد جمـعـة إبراهيم السـويدي في التأكـيـد، بين جملة وأخـرى، على أهمية جيل الغوص: «هؤلاء مهمون، اكتبوا عنهم، لا تنســوا زمنهم الذي كـان زمن البناء الأول. انهم اليـوم معزولون

عن الحياة، لا تعنيهم كل هذه الأضواء والحداثة».

جاء النفط.. لتبدأ مرحلة الخلاص، ومن باطن الأرض هذه المرة. لقد تحول البحر الى مجرد ذكرى عالقة بأذهان جيل قضى شبابه هناك حتى تلون بلون البحر ورائحته، يقف امامه اليوم معاتبا أو شاكرا أو مرددا «الآه الله» «،» على زمن صعب.

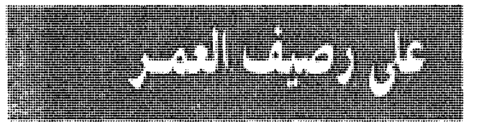
ومن مستودع غذاء ولؤلؤ تحول البحر الى مكان للسياحة والعطلات ومرح الطفولة، وإلى مكان للذكريات يستوحيه التشكيليون الشباب في لوحاتهم، بحثا عن ذلك الأب المعاق في إحدى رحلات الغوص، او عن ذلك «البوم» الكبير الذي أبحر ولم يعد..

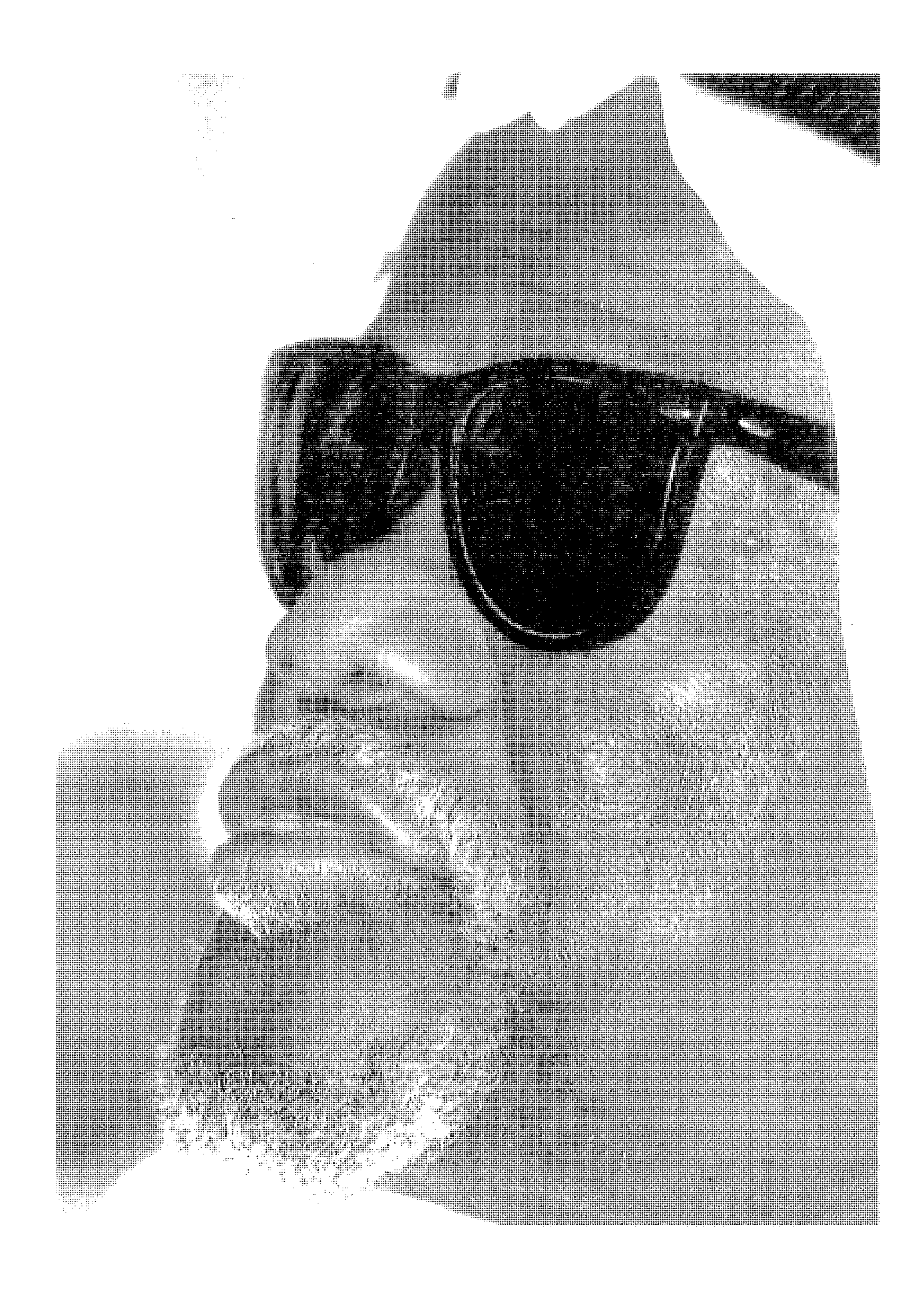
كانت حياة الإمارات تنبض بالبحر، لا أحد يستطيع الابتعاد عنه، لكأن الناس أسماك بشرية تموت ان ابتعدت عن السواحل والخيران والموانيء الصغيرة المبنية على الطريقة البدائية. وما هو خارج هذا العالم فهو خارج الخيال والاحتمال، لكن الخارج بالامس اصبح داخلا اليوم. فهذه العشرات من المرافق السياحية الممتدة على طول ساحل الإمارات والحركة الفندقية والحدائق والسباقات البحرية والمواسم الربيعية تجذب السيّاح من كل بقاع الأرض. لقد غير البحر لونه، وخرج من عزلته الى آفاق رحبة واسعة، جمالا وامتدادا، لكأنه يكافىء أصحابه المعذبين لصبرهم وصداقتهم، فتحول الى ميناء مفتوح على الخير في كل مكان.

ينظر الغواص القديم الى ذلك المشهد وهو يتأمل البحر الذي أصبح اليوم مجرد صديق قديم يكتفي بالسلام عليه، ثم يجلسان

في حـوار خـاص. لقد تحـول الجميع الى صيادي أسماك واصحاب مراكب بالعشرات. وما هي الا ساعات حتى تمتلىء السوق بأطنان من السـمك في كـرنفـال شـعبي رائع. الا ان المقهى القديم لم يعد الملجأ الدافىء لهؤلاء، فـقـد فـتـحت الجـمـعـيات أبوابها واتسعت صالاتها المكيفة، وتدور فناجين الشاي والقهوة كل خمس دقائق.

انه زمن آخر حقا..■


على رصيف العمر



على رصيف العمر

هل هو المنفى عندما ينتقل الانسان من زمان الى زمان، مثلما يحدث له في الانتقال من مكان الى آخر؟

وهل يحدث في المكان الواحد ان تتبدل الوجوه والأدوات والعادات والعلاقات والهواء والأغاني؟

ما الذي يحدث لذلك المخضرم، المتعلق بحبل عالمين وزمنين، فلا هو الاول ولا هو الثاني، لا هو الشباب ولا هو المشيب، لا هو البحر ولا هو الأرض، لا هو الربح ولا هو الخسارة. انه هكذا، نقطة عالقة في الطريق، في انتظار ان تجف؟

لكن هذه النقطة هي شريحة القلب والذاكرة، وهي المعنى الاول للتأسيس الحقيقي لاناس يصلح ان تنطبق عليهم كلمة «جيل» محدد الملامح، غير طارىء، وغير عائم في بحر الاتكالية.

هل هو المنفى عندما ينتقل البحار القديم من وسط البحر الى مقعد هامشي في مقهى صغير على حافة العمر ليصبح جسدا ناحلا،

وعيونا بنصف اغماضة، وذاكرة تضج بصراع الصور والوجوه، وانفجارا ساكنا في «لا حول ولا قوة»، وذاكرة تحلم بفلق محارة، فتقفز اللؤلؤة عالياً في اتجاه صوت «النهام» وهو ينعى اولئك الغواصين في العمق؟

أي زمان كان وتحول، واي زمان حل؟

الساحل مزدحم بالمراكب: بوم، سمبوك، بتيل، جالبوت، شوعي. والتحيات تزدحم بالطيبة والابتسامة والاسئلة عن الحال، بينما صوت النهام يذهب عن البحارة وحشة الماء وصخب الاشرعة.

«وافجوني وارحموا حالي، والهجر يا ناس ما طيقه».

«يا غناتي يا نظر عيني، ليش سابيني وانا ودك».

وبعد أربعة اشهر من الغناء والبكاء، يقفل الغواصون عائدين في اتجاه الوطن، ومساءات مقهى صغير على البحر، الاجساد لزجة، والايادي معروقة بالتعب والسواد. والعيون على حافة العمى.

هل هو منفى ان يتحول ذلك المقهى الى فندق بخمسة نجوم؟

كأن السؤال انفجار في ذاكرة الغواص جمعة مصباح بن فيروز، فيجيب: «لا تضع يدك على الجرح، فنحن ابناء اليوم».

لكن عن أي جرح يتحدث الغواص جمعة؟

يقول: «إننا في سجن كبير، رغم ما توفره لنا الحياة الجديدة من رفاهية، فالأصدقاء ذهبوا، والاغاني تبدلت، أين اجد صديقا

يعـرف اسراري واعرف اسراره؟ عندما يرحل صديق من أصدقاء البحـر، أبكي على حـالي لانني سأظل وحيدا. ماذا افعل بالكهرباء من دون رائحـة البحـر، ومـاذا افعل بمكيف الهواء من دون تلك الرطوبة التي تملأ رأسي بنكهـة الاعتياد اليومي؟ في السابق، عندما اقول الكلمة الاولى من الاغنية اجد من يكمل البقية، اما اليوم فاني أغنيها كلها ولا أحد يسمع».

يقـول عـمـران الشـامسي، رئيس جمعـيـة الشـارقة التعاونية لصـيـادي الاسماك: «لم يبق من اهل البحـر سـوى الثلث، انها شريحـة في طريقـهـا الى الانقـراض». إذن، مـا الذي يفـعله الثلث المتبقي؟

لاوجـود لتسلسل جـيلي، ولا يجد الغـواص القـديم شبابه في شـبـاب ابنه، المكان اختلف كثيراً، والساقي تبدل في المقهى، وتبدل الهواء والاصدقاء والعملة، والملل صار شكل العلاقة الوحيدة التي تربطه بيومه المتكرر الفارغ.

قلنا للنهـام علي بن ربيع: أسمعنا شيئا من النهمة، فقال: «قبل فترة جاء التلفزيون ليصور شيئا عن أيام البحر والعادات، وطلبوا مني ذلك فـفـعلت، لكنهم ضـحكوا وسخروا مني، هل تريدون ان تسخروا مني؟».

لماذا يا عم علي؟ إنك مـاضـينا الجـمـيل وصـوتنا الصادق. ان صـوتك يذكـرنا بالحياة الحقيقية وبنبضها المتألق البهيج. يتدخل الغـواص عـبـيـد بن محمد الحصان «انهم يقولون عنا، هذا عمره صـار 120 سنة وبعـده عـايش؟ ما الذي عمله؟ لقد كان صيادا،

فـهل اخترع المكيف أو السيارة؟ ان الجيل الحالي لا يقدرنا، ونحن لا نريد اكـثر من التقدير. كنا نكد ونتعب، ونتدبر امورنا بالحلال ولا نقبل الخطأ. اننا اليوم، رغم تقدم السن، مستعدون للعودة الى البحر وتكسير الحصى».

تتـصـارع الاجـيال من اجل بقاء الدور، وهؤلاء الغواصون لم يقعدوا مكتوفي الايدي رغم أزمنة التعب والشيخوخة، فقد اوجدوا لانفسهم مجالات عدة للعمل واثبات القدرة على التواصل.

يقـول عـمـران الشـامسي وهو من الجـيل الاوسط: «في العـام 1990 اشـهـرت جمعـيـة الشـارقة التعاونية لصيادي الاسماك، وتضم اكثر من سبعين عضوا من الغواصين القدامى وأهل البحر. هؤلاء لا يسـتطيـعـون مـفـارقـة البـحـر، فلجؤوا الى مهنة صيد الاسماك حـيث توفـر لهم الجـمـعـيـة العمالة والأدوات اللازمة للصيد. انهم اهل خير ولا يريدون الاتكال على احد، حتى وان كان من ابنائهم. والجمعية مكان لالتقاء البحارة القدامى، هؤلاء وجدوا أنفسهم في مهب التطور، وفقدوا الحركة والشباب، وتركهم الابناء الى الوظائف الحديثة».

«لكن هؤلاء الابناء لا يدرون بأحـوالنا»، يقول بلال فرج جمعة «بعض الابناء يطالب الاب بسـيـارة وزواج وهو لا يعلم بخـبـايا الحـال، يرى والده يأكل ويشرب ولا يدري مـا الذي يعـانيـه من ظروف صعبة».

انـها المسـؤوليـة المتواصلة من دون انقطاع. وربما يريد هؤلاء ان تسـتمر تعبيرا عن الارادة والقوة، وبحثا عن الدور الذي يؤكد

وجـودهم كـجـيل معطاء لم يكف عن الاضافة الى الحياة، رغم ما يقـولونه عنهم من أنهم عـاجـزون: «نحن لسنا عاجزين، بعضـهم يقول هذا رجل خرف، لماذا؟ اننا نملك القدرة على العمل ومن لديه مـهنة لا يضـيع رغم الطفـرة المادية وزمن البترول والرفاهية، ان الحـياة اليوم تعني لنا الكثير، فنحن نراها من زاوية اكثر وضوحا واعـمـق رؤية، لا تأخـذنا الألوان والبنايات والأضـواء. نحن على اتصال دائم مع الماضي ولذلك نفهم تماما معنى الحاضر».

هل هو المنفى ان تتـغير النظرة أيضـا الى هؤلاء؟ لقـد وجـدوا انفسـهم في خـضـم التـحـولات مجرد كتل جامدة على الرصيف، لكنهم تجـمـعـوا في فـرق تعـيد الى الاذهان ألوان الفنون الشعبية واغـاني البـحر، وهذا عمل آخر لجأ اليه الغواصون وجذبوا اليهم فـيـه العـديد من الشـبـاب. فـرق شعبية تحيي الحفلات الوطنية والمناسـبات الاجتماعية كالأعراس، ولها مقرات في جمعيات الفنون الشـعـبـيـة، هذه رقـصـة المالد، وتلك العيالة، والليوة، والآه الله، والطقة والهبان وغيرها.

يقـول احمد النابودة رئيس جمعـيـة الشارقة للفنون الشعبية: «لدينا فـرق عـديدة في مجال اغاني البحر أو الصـحراء، والجمعية مكان يلتـقي فـيـه «الشواب» ويمارسون هواياتهم في الخروج الى الاعـراس والمناسـبات العامة». وهذه الألوان الشعبية مستمدة من تراث البـحـر، فلكل مرحلة من مراحل الغوص لون خاص بها من الصـيف (شهر واحد) الى الغوص (4 أشهر) الى الردة (15يوما) الى «القـحـة» (يوم واحـد)، وهذه كلها تشكل مراحل الغوص على مدار العام.

يقف الرجال في صف واحد يلوحون بالعصي على ايقاع «الطبول والطيران والمراوس». وهي آلات ايقاعية قديمة، يقول جمعة مصباح : «نخرج في المناسبات العامة والاعراس، ونجمع الأجور على مدى شهر فتكون المحصلة احيانا ثلاثين الف درهم، توزع على أفراد الفرقة الذين يصل عددهم الى الخمسين واحيانا يحصل كل فرد على مائتي درهم في الشهر، المهم ان نمارس العمل، ان نقتل أوقات الفراغ».

يتذكر البحارة أيامهم من خلال أغاني البحر، ويتذكرون ايضا ألوان واسماء اللؤلؤ: «القولوا» الأخضر، «المغز» الأسود، «الجيون» الأبيض.. لقد كانوا يجوبون البحار من ايران الى بومباي الى البحرين، متنقلين بين البصرة والكويت والسعودية والمهرة ومسقط. وفي العودة لا بد من البشت والعصا والتبختر في مقاهي وحارات المدينة «لم تكن هناك سيارات ولا كهرباء»، يقول جمعة خميس. «كانت الدنيا بخير، كيس الرز باربع روبيات، وغرف المنزل مملوءة بتمور البصرة وايران والبريمي، والغريب الذي يدخل المنطقة لا يسأل الا بعد ثلاثة ايام».

واينما تجد بحارا قديما، تجد الحيرة تجسدها فكرة النفي من زمان الى آخر. فالتحولات السريعة لم تمهله قليلا ليتهيأ. هكذا من دون سابقة، وجد نفسه في زمن آخر، ليس سيئا، ولا متعبا، فقط هو زمن آخر، كل شيء فيه جديد، ولا ثغرة للقديم يطل من خلالها بوجهه الاصيل. هكذا يعبرون عن تعبهم، ولكن لابد لهم من دور.

بين الغناء وصيد الاسماك وتجارة التحف والعاديات، وبين

الموت والشلل والعـجـز، توزع أهل البـحـر، منهم من انسجم مع الحـيـاة الحـديثـة، ومنهم من بقي وفـيـاً لزمنه، ومنهم من فارق الكلام وجلس صـامتا، لا يمل من النظر الى الامام، كأنه تمثال مر عليه الزمن وبقي منحوتا بتفاصيله الصعبة■





عازفون على خشب السدر

كل شيء فيهم يحيل الى التعب، الا سواعدهم فهي اساس العزف على الخشب، يسمونهم «الجلاليف» او صناع مراكب الصيد الكبيرة والصغيرة. تربطهم علاقة وطيدة بالساحل، فهم الحد الفاصل بين البحر واليابسة. يقضون حياتهم في فوضى المطارق والمسامير، بينما تاخذهم الحركة حتى لا يحسوا بالمسامير في أفواههم، تحت أقدامهم وبين اصابعهم. انه سحر المهنة.. او سرها.

في مرحلة ما قبل النفط كانت مهنة «الجلافة» واحدة من المهن الاساسية والشائعة، تنتشر على ساحل البحر في امتداد عجيب بين صور العمانية، والبحرين ودبي والكويت. يأتي البحار ويطلب «مركبه» حسب التفاصيل المناسبة، ويبدأ العمل: عشرات العمال من أبناء الخليج يتقدمهم العامل البحريني في المهارة والعدد، يعرفون انواع «المحامل»: سمبوك، بوم، جالبوت، هوري، صمعة، بتيل، شوعي، كوتيه، بدن، بقارة، فيل، شاحوف.. اسماء يحكمها

الطول والعرض والشكل والعمق والمقدمة والهيكل، والاجزاء والاستخدامات. فمحامل صيد الاسماك تختلف عن محامل الغوص، وتلك المستخدمة للسواحل القريبة غير التي تستخدم للرحلات البعيدة.

وهناك حي في أبوظبي كان يطلق عليه «فريج الجلاليف». و «الصيري» من العوائل التي اشتهرت بهذه المهنة وتوارثها الرجال جيلاً بعد جيل.

أكبر المحامل «البوم»؛ حيث تستغرق صناعته سنة كاملة في حالة وجود اكثر من 15 عاملا «جلافاً». والحاج حسن ابراهيم الحواي يرفض ان نطلق عليه اسم الجلاف: «أنا استاذ، ولست جلافا، فالاول هو المشرف والباني الاساسي، والثاني هو المنفذ والعامل المباشر».

وبهدف التوثيق يكرر حسن الحواي اصراره على انه صنع مائتي محمل كبير في حياته. لكنه لا يعرف تاريخ ميلاده ولا عمر انخراطه في هذه المهنة، يقول جزافا «سجل 90 سنة». ويحتج احد عماله: «كيف 90 سنة وأنا عمري أكثر من سبعين سنة، وأذكر انني عشت في كنف الحاج حسن الحواي منذ السابعة من عمري، كيف؟». ونشب خلاف «عمري» بين المجموعة لم ينته بسهولة، على الرغم من ان الجميع لا يعرفون تواريخ ميلادهم تماما.

ورغم تعدد انواع واسماء المحامل (المراكب)، الا ان احدا لا يعرف من اين جاءت التسميات. غير ان السبب الأوضح هو انها جاءت من الاسفار وكثرة اللغات التي يحتك بها البحارة في الهند

وافريقيا وايران، حيث حملوا معهم منها اسماء المراكب وبعض انواعها. والسبب الآخر هو طبيعة الاستخدام والغرض من هذا المحمل او ذاك، مما استدعى اطلاق اسم محلي متداول، هو في الاساس اسم حيوان او مادة او اداة منزلية. ولا تختلف اسماء المراكب، مهما تعددت، عن بعضها في كامل منطقة الخليج. وهي تبدو مقدسة لدى حسن الحواي: «هذه الاسماء من ايام جدي حين كنت صغيرا إقلده فيما يعمل واقول هذا بوم وهذا كوتيه، ومن غير ان ادري وجدت نفسي اقدم للبحر قرنا من الزمن، حتى تخشبت يداي، لكن قدمي بقيت تضرب الأرض بقوة، فجاءتها سيارة طائشة من بعيد اقعدتني، فلا استطيع القيام إلا قليلا».

بدأ حسن الحواي هذه المهنة من «فريج البحارنة» في دبي، ثم انتقل الى الغبيبة، مما يعني ان هذه المناطق هي مراكز صناعة المراكب في الماضي، قبل ان تحل محلها اليوم مناطق الجداف والحمرية وجميرا. يقول حسن الحواي: «كنت اصنع البوم بمائة روبية، اما اليوم فلا استطيع ذلك بأقل من 90 الف درهم». والطريف ان التطور الصناعي والتكنولوجي وتوافر الادوات الكثيرة لم يصل الى هذه المهنة؛ اذ يفضل «الجلاليف» استخدام ادواتهم القديمة حتى الآن كالحبال الليفية المحلية، والمطارق المصنوعة في موقد الحداد، وكذلك المسامير والدهون والخشب الذي يأتي من دون تصنيع، إذ يستورد على شكل كتل هائلة من جذوع الاشجار،ويتم تفصيله على الساحل بواسطة منشار يدوي يحركه اثنان يتقابلان من الاسفل والاعلى بحركة ايقاعية.

ويتحدث «الجلاليف» عن الأوائل، أولئك الصناع المهرة الذين

اشتهروا في المهنة أمثال عبد الله الصيري واحمد بن عبود وابن فردان، واسماعيل عبد الحسين، واحمد بن سلمان. ويفخر حسن الحواي بتجربته: «أنا سيد الارقام القياسية. لقد تعلمت المهنة من منابعها، وسافرت الى لنجة في ايران، وصور في عمان، والهند. واذا كنت قد صنعت المحامل الصغيرة كالشاحوف والبقارة، فإنني ايضا تزوجت خمس مرات، ولدي الآن 17 ولدا، ولم اكف عن هذه المهنة، فقد دخلت عالم السباقات سنويا».

ان استمرار المهنة حتى الآن هو جزء من الاهتمام بالماضي وملامح الحياة القديمة في مرحلة ما قبل النفط، وقد ظهرت في الامارات مواسم سنوية للسباقات المختلفة في مجال القوارب الخشبية والمراكب الشراعية، مما جعل هذه المهنة تزدهر ثانية ويقبل عليها عشرات الجلاليف ممن توقفوا لفترة ثم عادوا، بل عادت اليهم الروح كما يقول الحواي، الذي لا يفرق بين الامس واليوم. فهو حريص على دور الاستاذ الذي يخيف عماله ويصرخ بكل من يخطىء، ويعلن «إذا دققت بالمطرقة يخاف مني الجميع».

ولم يكن حسن الحواي وحده الذي يعتز بمهنته وتجربته، كلهم يقفون بخشوع امام كتل الخشب، ينظرون الى مراحل صناعة المحمل، ولا تعنيهم حرارة الجو ورطوبته. ومن بعيد يأتي النوخذة عيسى محمد عيسى يتوكأ على عصا، كانت سيارة طائشة ايضا: «ذلك ما حدث واصبت في قدمي».

هل تسألون عن اهم وأكبر المحامل التي كانت معروفة في الامارات؟ اسمعوا إذاً : «في الاربعينات، كان هناك «سنبوك» كبير

اسمه «هزاع» يملكه محمد عبيد البدور، و«سنبوك» آخر اسمه «القرهود» يملكه محمد بن مدية، وآخر اسمه «العمارة» يملكه آل ثاني، وهي من مئات المحامل المستخدمة في الغوص».

ويشكو عيسى محمد من أن مثل هذا المحمل كان ينتهي في اربعة اشهر لأن العمال من العرب ومن اهل المنطقة، اما اليوم فالعمل يستغرق سنة أو سنتين، حيث لا يهم العامل سوى اجره اليومي من دون النظر الى ما يجب عليه عمله.

ووسط غابة من الخشب، يشير عيسى بن محمد الى ان الخشب المستخدم في صناعة المحامل هو «القرط» وخشب «السدر»، وهو يأتي هكذا من دون تصنيع، فنقوم نحن بتقطيعه حسب الاطوال والمواصفات المطلوبة. مثلا: «نضع أولا «البيص» ويعني العمود الافقي الذي يشكل الاساس، ثم يوضع «الميل صدر» و «الميل تفر»، وهما عمودان صغيران نسبيا على طرفي الاساس، وبعد ذلك يأتي خشب المالج من اليمين واليسار، ثم وضع «الفارمة» اي الاطار (ويلاحظ ان المفردة محرفة عن الانكليزية)، ثم الاضلاع كهيكل يشبه القفص الصدري، وهي ليست ثابتة، ويقام عليها البناء المطلوب حسب نوع المحمل».

واذا كان الجلاف ماهرا فإنه لا يترك ثغرات بين اصطفاف الاخشاب، ففي هذه الحالة تكلفه العملية مزيدا من «الكلفات» وتعني الخيوط التي تسد الفتحات، لكنها تبقى مصدر خطر بعد الاستعمال الطويل. ويفضل النوخذة عيسى بن محمد (السنبوك)، وهي مراكب كبيرة الحجم وفيها مواصفات متميزة عن غيرها.

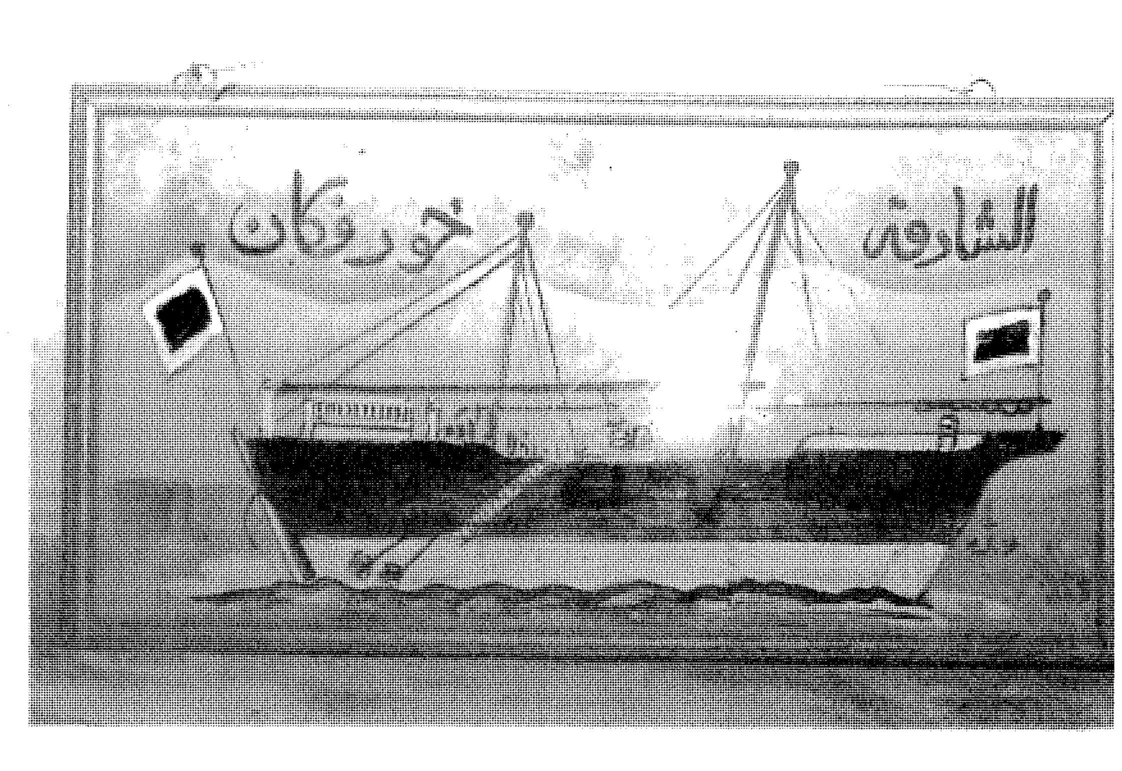
وتبلغ مقاييس السنبوك 20 مترا للطول و4 امتار للعرض. وهو يستخدم لرحلات الغوص، والمؤلم ان هذه المساحة (20 × 4) كانت تستوعب حوالي 45 رجلا لمدة 4 أشهر في عرض البحر.

ومن أجزاء «السنبوك»: شبرية النوخذة وهي مكان يأكل وينام ويجلس فيه النوخذة، مرتفع قليلا يما يتيح له السيطرة على المشهد داخل المحمل، ويقابلها في المؤخرة «المزملة» وهي مكان للمرضى. ثم «صريدان» وهو عبارة عن موقد مربع للطبخ، و «الجوالي» وهي فتحات متصلة في الاسفل، و «الخن» وفيه خزان ماء للشرب يستوعب 680 جالونا، و «العبيدار» جزء يدخل في عملية رفع وخفض الشراع، و «الدقل» وهو العمود الفقري الذي يمسك الشراع. ويسنده جزء آخر يدعى «عبد الدقل» ثم «الفرمن» الذي يلف عليه الشراع وهو العمود الثاني من حيث الاهمية بعد الدقل.

اضافة الى ذلك فهناك المجاذيف والحبال والدستور واجزاء البناء الاساسية في صناعة المحامل.

ويكاد المرء يشعر ان الجلاليف يجدون صعوبة في التفريق بين القفص الصدري وقفص المخمل الخشبي، فلهما قلب واحد، هو ذلك النبض الذي لا يتعب على الرغم من تغير الحياة والمكان والظروف. ■

رحل الرسام وغرق القارب


الشارقة
خورفكان

رحل الرسّام وغرق القارب

محني الظهر، يجلس عند الساحل في «مساءات» خورفكان، بيده فرشاة وعيناه على قارب «النور» وحوله غرباء لا يعرفهم، ويبدأ الرحيل في خطوط اللون والطبيعة.

ذلك الرسام المجهول الذي يملأ الميناء سكونا وهو ينقل شموخ القارب على خشبة مستطيلة، لا ينتظر كثيراً لكي يبيع لوحته. فالغرباء الذين لا يعرفهم واقفون حوله في انتظار اللمسات الاخيرة، ثم تغيب اللوحة من دون توقيع او تاريخ.

مات الرسام، وغرق القارب، وبقيت اللوحات معلقة على جدران الارض. هل يعرف احد ذلك الرسام؟ قال بعضهم: خلفان محمد علي مفتاح يعرفه.

في غرفة خضراء اللون، منزوية تحت الجبل، بدا خلفان محمولا على مسائة عام، ينتظر فتيان الحارة؛ يجلسونه ويغطون رجليه. ثم من دون سؤال او نظرة او حركة، قال بصوت مرتجف وبعيد:

«كان شعرهم أحمر، وملابسهم حمراء، وعلى رؤوسهم أغطية سوداء، قتلوا الناس ودارت معركة، ووضعنا النساء في الحفر، ورجالنا يقاتلونهم حتى هزموهم الى البحر».

لم يعد مهما السؤال عن ذلك الرسام الذي غاب عن ساحل الميناء في خورفكان قبل ثلاثين عاما؛ فهذا رسام آخر يشكل بصوته وذاكرته المتعبة صورا غريبة عن هذه المنطقة.

من هم يا عم خلفان هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟ لم يجب، وواصل الحديث المتقطع: «انا مزارع، كنت اعمل في حديقة «المطوعة» مريم حسن، وحين افرغ من عملي اجلس بعيدا في الزاوية، أرقب الاولاد وهم يرددون وراءها القرآن، هكذا حفظت وتعلمت، خمس سنوات وانا على هذه الحال، ثم عدت الى وادي شي، أهلي كانوا هناك».

كان فتيان يجلسون حوله يتساءلون عن شيء ما، لا يعرفون انه الزمن الذي يفصل كثيرا بين الحياة والحياة. ومن شغفهم بالحديث راحوا يحثونه على مواصلة الكلام عندما يسكت، لكنه لا يرد عليهم، لكأنه يبحر بعيدا ثم يأتي بعد خمس دقائق من الصمت حاملا قليلا من المفردات: «أبي وجدي جاءا من «حياوة» وهي منطقة في خورفكان. اخواني كلهم ماتوا وبقيت وحدي، اخاف من البحر واحب النخيل، كان معاشي روبية واحدة في الشهر، ثم تطورت الحال الى روبية ونصف الروبية عندما بدأت العمل في «الزايرة». كنت اخرج الماء من البئر، ثم يحمله الثور الذي يسحب الماء الى المزارع».

كـتلة من الارتجاف والنحول كان خلفان مفتاح. لاعلاقة له بما يحدث من حـوله. خـورفكان اليـوم مـدينة عامرة، فارقت القرية الصغيرة الواقعة على ساحل بحر عمان. لكنه مازال يتذكر الهبوط اليومي من الجبل الى سوق القرية، ثم الصعود مساء مع قليل من التـمـر والخـبـز. تقـول له امرأة كانت تجلس امامه بصوت عال: «هـؤلاء يـريـدن شـيئاً عـن الماضي، قل لهم شـيئا». فيرد بنصف اسـتـجـابة: «كنت اصلي واقـفـا، واليـوم لا اتذكـر الصـلاة ولو جلوسـاً». ثم يجد نفـسه فرحا بهذه الصحبة: «أذكر انهم حاولوا مـرارا صـعـود الجـبل، لكنهم فشلوا فاستخدموا مدافعهم ونحن نتراجع الى مناطق ابعـد، وعندمـا يصـعـدون على ظهـور الحـمير نسـتـغل هذه الفـرصـة ونطلق عليـهم الرصـاص فيسقطون مع الحمير».

من هؤلاء؟ يسكت. «اتركـوه يتـذكـر» قال احد الفتيان. الا ان خلفـان مـفتاح نام، هكذا تركنا الى غفوته، لكنه لم يقل لنا من هو ذلك الرسام المجهول الذي كان يجلس على ساحل ميناء خورفكان ويرسم القـارب الجميل الهادىء في البحر قبل ثلاثين عاما، كما لم يـقـل لنا من هم اولئك الغـزاة الذين حـفـروا في ذاكـرته صـورة وحشيتهم: «لقد سرقوا بعض النساء وهربوا الى البحر». فقط هذه الجملة رددها كثيرا الى درجة البكاء.

تشير تلك المرأة التي تبنت مهمة «الترجمة» الى حاله: «هكذا هو دائما نأتيـه بالاكل ونرعـاه كـجـار وكـرجل معمر ووحيد يعيش وحده منذ ايام البريطانيين، هل هناك أسئلة أخرى؟».

هناك حيرة وذهول وارتباك. لقد قال كثيراً من الصمت حتى افرغ المائة عام كلها في سطور.

قال فتيان المنطقة: «نذهب معا الى السوق القديم ووادي شي ومناطق اخرى، ربما هناك من يعرف الرسام».

في الطريق، كانت المدينة عامرة بالاتساع والخضرة، على الرغم من ان «المنجد في اللغة» لم يغير معلوماته عن الاماكن؛ حيث يقول في طبعته الحديثة 1984: «خورفكان قرية صغيرة ساحلية لصيد السمك». لكن تلك القرية لم يعد لها وجود سوى بعض اطلال في انتظار الزوال، وجدران منخفضة سوداء موزعة على اسماء قديمة: الرفاع، البردي، الخبة، شرق، المرقة، البحرية.. معظمها يقابل البحر من جهة الميناء الذي كان الوحيد لاستراحة القادمين من الهند وإيران وعمان والكويت والبصرة. وقبل ذلك كانت قلاع خورفكان من اهم العقبات التي منعت البرتغاليين من الوصول الى مسقط. وفي معركة كبيرة هدموا هذه القلاع ووصلوا الى مسقط في القرن السادس عشر الميلادي.

ويثير اسم خورفكان رغبة البحث عن معناه. يبادر «باسم»، احد سكانها فيقول: «انا اعرف الميناء محصوراً بين فكين: العقبة الاولى والعقبة الثانية، والمدينة محصورة بين هذين الفكين».

والمعنى صحيح، وقد ورد في رحلات ابن بطوطة «خورفكين». ووصفها بأنها منطقة انهار وحدائق غناء، وأهلها يتمتعون بحياة منعمة. يشير أحد فتيان المدينة الى «برج» او بقايا على قمة الجبل:

«هذا البرج يعرف قصته العم احمد عبيد علاي».

كانت غرفة المجلس تعبق برائحة البخور، واحمد عبيد علاي يرحب: «هذا البرج وجدناه هكذا قبل 60 سنة في فترة حكم سعيد بن حمد القاسمي، يسكنه في الليل ثلاثة اشخاص وفي النهار شخص واحد، وهم حراس يطلقون شارة من البندقية عندما يصل الحاكم من بعيد، وهي شارة الوصول التي تعلم الحاكم بأنه صار قريبا من المنطقة، وتعلم اهل المدينة بأن الحاكم وصل».

آثار البحر كانت بادية على وجه احمد عبيد، لكنه يصر على شبابه الذي لا يزال يتدفق حيوية: «كان عمري 18 سنة عندما ذهبت الى البحر في موسم الغوص، كانت الرحلة تستغرق عشرين يوماً في منطقة رؤوس الجبال مع النوخذة محمد عبد الرزاق. لم نكن في حاجة الى استيراد المواد الغذائية، فقد كانت خورفكان حافلة بزراعة البصل والخيار والحنطة والذرة والبطيخ، وتربية المواشي وانتاج الحليب. كانت الحياة سهلة الى درجة اننا لم نشعر يوما بالمعاناة على الرغم من وجودها. يخرج المسافر الى كلباء (حوالي 30 كيلو مترا) على ظهر الحمار بينما صاحب الحمار يركض خلفه مقابل روبيتين. حياة صعبة لكنها جميلة». هكذا يراها احمد عبيد، الذي ترك كل شيء عندما قالوا ان ماكينة جديدة ستحل محل الحبل والدلو لاستخراج المياه من الآبار، وذهب فورا الى دبي ليشتري مجموعة من هذه الماكينات ويكون اول ميكانيكي متخصص في التركيب والتصليح. وهو يحتفظ حتى الآن بادواته في غرفة خاصة: «هذه الادوات للذكرى ولن انساها ابدا».

الكلام نفسه قالته فاطمة المغني، التي تحتفظ بلوحة مركب النور التي كان رسامها لا يعرف غير ذلك المشهد: «هذه واحدة

من اللوحات، وربما تكون الوحيدة التي بقيت داخل الامارات، والبقية توزعت على جدران الارض. من يدري اين هي الآن، بل كيف غرق ذلك المركب بعد رحيل الرسام؟».

هكذا تبدو خورفكان مشغولة بجديدها الجميل الى حد السياحة: قصور وشوارع وساحل خارج للتو من صياغة المتعة والبهجة، وحياة اقرب الى كمالها المنشود؛ حدائق ومدارس ومسرح وملاعب ومراكز تنمية وشباب وطفولة وفنادق يشم فيها الزائر نكهة العواصم ويرى، في الوقت ذاته، بعض خيوط القرية الهادئة.

ونمسك بأحد تلك الخيوط عندما سأل احمد محمد بن عبود: «هل تبحثون عن تاريخ هذه البيوت المهدمة؟» كانت الخرائب محصورة في مكان هو خورفكان القديمة. اذن، لا بد هنا من العودة الى سبعين عاما بدءاً من عهد الشيخ حميد بن عبد الله القاسمي. وهذه غرفة مرتفعة لم يبق منها سوى نصف جدار تظلله شجرة. هنا كان يجلس علي بن عبود النقبي، التاجر والنوخذة وصياد السمك ووالي المنطقة، ليحل مشكلات الناس ويفتح مجلسه في «منطقة النخيل» التي لا تزال تحتفظ بكونها مصيفا جميلاً عامراً بالزراعة، وفي الشتاء ينتقل المجلس الى بيته في الساحل. هكذا يصف احمد بن عبود حياة آبائه، ويضيف: «الناس قليلون، وهذه البئر التي لا تزال عامرة بالفوهة العريضة، هي ملجأ الناس، يتجمعون حولها للشرب وتخزين المياه والسمر. اسمها «طوي القندة» اي بئر المياه الحلوة، يقصدها القريب والبعيد». فوهة مفتوحة لاستقبال العابر من الفضلات حتى

امتلأت، وهي مازالت تنبض بالماء من الاسفل. وتبدو الجدران من حولها متقاربة في علاقة حميمية تكشف صداقة المكان واقترابه في توحد المصير اجتماعيا وثقافياً واقتصادياً. يقول احمد بن عبود: «لا تبعد اطراف المكان عن بعضها أكثر من صرخة رجل. الأزقة متقاربة والمساءات تكاد تكون في غرفة واحدة. لا شيء ابعد من ذلك في خورفكان القديمة».

إذن، لماذا لا يعرف احد ذلك الرسام الفطري الذي لم يكن بعيدا أكثر من صرخة رجل؟

احتار الفتى «باسم» كثيرا من هذا السؤال محاولا ايجاد الجواب. فقال: «هناك رسامون كثيرون جدد، بعضهم يقيم معارض تشكيلية ونزورها دائماً». حقا لقد عاد ذلك الرسام من غيبته. ولكن بروح جديدة حملها قلم الشاعر احمد راشد ثاني، الذي كتب عن خورفكان، وخلفان مفتاح، والطفولة، والمنزل المرتجى. ■


لؤلؤة التومان

لؤلؤة النومـان

في العـام 1934 كـان سـعـيـد النومـان قد بلـغ من العمر 30سنة، حينئذ وجد في نفسه رغبة ملحة لتعلم اللغة الانجليزية، فقرر ان يذهب الى الهند لقـضـاء فترة يلبي فـيـها رغبته. لكن تلك الفترة امتدت الى 35 سنة، وامـتـد شـوقـه لمدينتـه حـتى أصـبح جبالا تثقل روحه بالحنين وتصعد الى ذاكرته صور الدفء على مسرح الطفولة.

«في الايام الاخيرة في الغربة كان صوت الوطن يأتيني من بعيد، يدعوني اليه من دون ان أستطيع تجاهله.. فعدت». ويبتسم سعيد النومـان، فـقـد تذكـر عودته الى الشارقة في العام 1969: «يومها وجـدت كل شيء قـد تغير، فـالمدينة اجمل، لكأنها اخت الابتسامة، وبينما انا مشغول بالجديد تذكرت السوق القديم، ذلك المكان الذي عـشت فيه شابا ابحث عن العمل المناسب، ومثلما هو قلب المدينة، هـو قـلـبي ايضـا، وقـد وجـدته في مكانه على الرغم من مـلامح

التغيير».

وبدأ سعيد النومان انطلاقة جديدة من السوق القديم، لكأنه يريد إلغاء فترة غربته، أو انه يعيد عجلة الزمن. وفعلا كانت تجارة اللؤلؤ في انتظاره. ففي سوق الشارقة القديم الذي يطل على الخور ويسير معه طولا. كانت التجارة في قمة ازدهارها؛ حيث تجارة اللؤلؤ والذهب والصناعات اليدوية، والتجار الذين يأتون ببضائعهم من عمان ومناطق اخرى من الخليج العربي.. بين هذه الحركة وجد سعيد النومان مكانه كأبرز تاجر في اللؤلؤ: «عرفت السوق القديم منذ كان مسقوفا حيث ينتشر فيه الغواصون وتجار اللؤلؤ استعدادا لموسم الغوص، الذي يبدأ في اول الصيف من كل سنة، تقف السفن على طول ساحل الخور المجاور للسوق لتبدأ الحملات طريقها الى الاعماق. في تلك السنوات كان الناس غواصين وتجار لؤلؤ».

ويُعرف سعيد النومان بأنه ابرز تجار اللؤلو في ذلك الوقت، ويؤكد: «أنا الوحيد في الشارقة، بينما في دبي هناك محمد بن دلموك وسالم بن حمودة وابراهيم الفردان الذي نسميه الدكتور لانه أبرز جراح لؤلؤ في المنطقة يستطيع حفر اللؤلؤ لاستخراج الطبقات الداخلية التي تكون احيانا اثمن من خارجها».

لكن اذا كان هؤلاء تركوا تجارة اللؤلؤ فان سعيد النومان لايزال يحتفظ إلى الآن بهذه المهنة، وقد اختار له مقرا في السوق القديم يقول انه كان موقع جمارك الشارقة: «تجارة اللؤلؤ

الطبيعي لا تزال موجودة ولم تنقرض كما يقول البعض، ومازلنا نشتري من الغواصين الموجودين في بعض الجزر في الخليج، ولدي الآن كمية من اللؤلؤ تساوي 300 ألف درهم، وهناك حبة واحدة تساوي هذا المبلغ، والمهم انني لن اترك هذه المهنة لانها مهنة اجدادي».

وأمام مقر سعيد النومان وسط السوق القديم في الشارقة جلس اصدقاؤه في بقعة من الظل، بعضهم يعرف ان هذا الرجل تغيب عنه بعض التفاصيل التي قد تكون حدثت اثناء فترة الـ 35 عاما التي قضاها في الهند. يتدخل محمد بن عبيد النابودة: «هذا السوق له اسم آخر.. (سوق هاويّة أو بوكندر وهي فارسية جاءت من الكويت) والتسمية جاءت من مهنة حمل الماء في صفيحتين مربوطتين في طرفي عصا طويلة وغليظة يضعها البائع على كتفه، وحول السوق كانت البيوت تنتشر مشكلة منطقة صغيرة داخل سور تم هدمه قبل حوالي 200 سنة، ولم يكن هناك قبل هدم السور سوى عدد من البيوت في منطقة تسمى (حارة الشيوخ). ومن ساكنيها عائلات المدفع والطويل والنابودة والنومان والمناعي والناخي والمحمود..». يبتسم محمد النابودة وهو يشير الى بقايا منزلهم: «لقد سرق الانجليز باب البيت، وجدوه مزخرفا وجميلا يدل على صناعته القديمة ونوع الخشب الثمين».

وعلى امتداد السوق كان البدو يأتون من مناطق عديدة ومعهم

الفحم والخشب وعلف الحيوانات ليبيعوه في هذه السوق الوحيدة يومها، والتي لم يبق منها اليوم سوى مساحات ضيقة امتدت اليها حملات البناء والعمران الحديث، وبقي جزء يحكي صوراً من القديم، ذلك الزمن الذي يعتز به هؤلاء الجالسون في ظلال جدرانه الآيلة للسقوط.

يقول ناصر حسين العبودي مدير دائرة الآثار والمتاحف في الشارقة «لو نترك حكاية الاسواق القديمة ذات البعد الزمني الذي لا يتجاوز المائة سنة، فإننا سنذهب بعيدا في التاريخ، ونرى ان مدينة الشارقة سكنها الناس قبل ستة آلاف سنة اي في العصر الحجري، ولدينا مواقع اثرية تؤكد ذلك. لكننا لا نكشف عنها الآن خوفا من تخريبها او العبث بها. وعلى الرغم من الكثافة السكانية قديما فاننا لم نتوصل الى بعض المراحل التي تشكل انقطاعات زمنية غير واضحة المعالم وغير كاملة لدينا. وحتى الآن فان البحث الذي تقوم به امارة الشارقة لم يصل الى من هم الساكنون ومن أين جاؤوا؟ لكننا عرفنا ان لهم اتصالات مع أبناء المنطقة مثل قطر ومناطق غير معروفة وذلك من خلال قطع اثرية ليست محلية ولا نعرف مصدرها». والمعروف ان الابحاث اكتشفت طريقا ممهداً بين الشارقة ومنطقة الذيد يعود الى 18 الف سنة كانت تكسوه الخضرة، وذلك من خلال فحص التربة. وبعد أزمنة لاحقة تكوّن الرمل بفعل الرياح وغطى المنطقة التي تعتبر اليوم صحراء، وربما بعد حقب زمنية مقبلة يعود الى المنطقة الوضع السابق نفسه.

وبين العصر الحجري قبل 6 آلاف سنة والعصر الحديدي اللاحق هناك حضارة موجودة في كل الامارات لم يعثر عليها بعد، كما يقول العبودي: «ونتوقع العثور عليها، فاذا وجدناها ربطنا بين المراحل الثلاث». قلت لناصر العبودي: لنقترب اكثر مما هو بارز في تاريخ الشارقة، فقال: «نتيجة بحث قمت به عن الحصن ـ كان في منطقة ساحة البرج وأزيل ـ وجدته اضيف الى قلعة كانت موجودة سابقا واسمها «المحلوسة» اي المستديرة او الملفوفة، هذه القلعة اقدم من الحصن ـ 1815 ـ اي يفصل بينهما مائة عام تقريبا، هذه العلامة التاريخية مفيدة جدا في مجال البحث».

في تلك الفترة وما بعدها كانت الشارقة مركزا تجاريا بعد منطقة لنجة وهي شبه جزيرة في الخليج عند مضيق هرمز، اما الموجود الآن من الأسواق فيمثل الفترة الحديثة اي قبل 200 سنة ولا يوجد اثر يدل على أسواق أخرى غير الموجودة حاليا. والذي يؤكد ازدهار الشارقة في منتصف القرن التاسع عشر هو ما ذكره احد الرحالة وهو «بنجهام» عند زيارته للشارقة سنة 1860 تقريبا بقوله: «لايوجد مدينة تجارية بين البحرين وصحار أعمر من الشارقة».

ولا يستطيع احد ان يمر سريعا من امام السوق المركزي الحديث الذي يعد تحفة معمارية جمعت في بنائها كل تفاصيل الحضارة الاسلامية في البناء والزخرفة، وقد استغرق بناؤه 29 شهرا من 1976 ـ 1978 على مساحة كلية تقدر بحوالي ثمانين

الف متر مربع، وهو حسب المتابعين والاستشاريين أول سوق من نوعه في العالم من حيث هندسته وتصميمه.

ويتكون هيكل السوق من جناحين رئيسيين لبناية من طابقين، يربط بينهما جسران مسقوفان. وعلى طول الطريق التي تفصل بين هذين الجناحين اقيمت ست نافورات وأربع برك للمياه موزعة على مسافات متناسقة.

ومابين السوق القديم والسوق المركزي الجديد مسافة مئات السنين يختصرها شعار هو الوحيد في لغة المدن: «ابتسم انت في الشارقة». فكل بقعة خضراء وكل شارع يمتد طويلا في الهدوء. وفي مقابل ذلك العمران الحديث ثمة زوايا وممرات اسمها اسواق قديمة ذات طابع شعبي تتقابل فيها الدكاكين في حوار الرائحة العجيبة وحركة المارة ونبض الضوء القادم من السقوف المثقوبة.

واذا كان العمران يحتل كل المساحات، فان هناك دراسة تدعو الى التأني في شأن مصير السوق القديم للنظر فيما اذا كان يبقى علامة من علامات الشارقة مثلما هي الحال في أثينا التي تحرص على ابقاء منطقة (بلاكا) القديمة ذات الشبه الحاد مع منطقة الشارقة القديمة، بخاصة وان التخطيط الحديث حقق نجاحا في المزيد من المعالم الجميلة؛ فهناك ايضا سوق المجرة يقترب من شكل السوق المركزي الجديد، ومن بعض ملامحه القبة الذهبية التي يبلغ قطرها 17 مترا بينما يبلغ طول المبنى 300 متر على مساحة 11 ألف متر مربع، وهو أيضا تحفة معمارية فريدة

تتضمن كل ما توصل اليه الفن المعماري الاسلامي في ابهى عصور ازدهاره.

ومع هذه المعالم لا يستطيع احد ان يتوصل إلى ابعد من الدعوة إلى الابتسامة طالما أنت في الشارقة، ففي كل مكان ابتسامة، ربما أكثرها اشراقاً تلك النافورة التي تتوسط بحيرة خالد ويدور حولها شارع طوله 17 ألف قدم مفعم بالخضرة ووسائل الترفيه والنزهة اليومية العامة. اما البحيرة فتغطي مساحة 5 كيلو مترات مربعة، بينما ترتفع النافورة الى 76 مترا ووسط اضاءة ملونة تحت سطح الماء، تصدر عن 6 كشافات بقوة شديدة الاضاءة، وهي ثالثة اطول نافورة في العالم؛ الاولى في السعودية (ارتفاع 261 مترا) والثانية في سويسرا (ارتفاع 130 مترا).

وبعد ذلك، لا بد من ارتفاع نصب شامخ وسط الشارقة يرمز الى سبع اياد تحمل لؤلؤة هي دولة الامارات تعبيرا عن الاتحاد والأسرة الواحدة، ففي وسط المدينة يرتفع نصب تذكاري الى 43 مترا لحمل رمز الإخاء؛ كرة يبلغ قطرها 5 امتار مصنوعة من صفائح الذهب.. ونبض التطور الشامل في الشارقة.■

سرقوا منزل النابودة



سرقوا منزل النابودة

أبواب مشرعة للريح، وبقايا جدران، وزقاق عرضه نصف متر مملوء بالنفايات؛ هل يدعو هذا المشهد لاستثارة فضول ذلك السائح الأجنبي؟ لقد وقف مشدودا الى احد الأبواب الخشبية يتامل زخرفته وضخامته ومطرقته النحاسية ومساميره. لم يكن أمامه سوى خلع الباب وحمله الى حيث يحتفظ به كتحفة نادرة، وصرخ الحارس: لقد سرقوا باب منزل عبيد بن عيسى النابودة..!

منزل في منطقة الشارقة القديمة، الحوش والبارجيل والمجلس وأشكال معمارية انسجمت مع عصر ما قبل النفط والكهرباء والمكيف، ثم انشغل عنها أهلها الى الشاهق والحديث فبقيت تلك المنطقة عارية الا من الذكريات وبعض المقاعد الخشبية المتهالكة يجلس عليها المعمرون في ضحى الأيام الربيعية، لكأن هذه المنطقة هي التي أصبحت خارج السور، بعد أن كان كل شيء خارج سورها غريبا وموحشا وبعيدا.

يسمونها «السوق القديم»، وهي كذلك منذ بداياتها؛ اذ كانت

محطة للقوافل التجارية بين المدن، ومن هنا استمدت ازدهارها التجاري، حيث كانت حلقة الوصل بين مدينتي العين ورأس الخيمة ومدن اخرى متناثرة تحتاج الى نقطة التقاء الخطوط المؤدية اليها، إضافة الى أن منطقة الشارقة القديمة تمتاز بموقعها المطل على البحر ما يسهل الوصول اليها برا وبحرا، وهي عوامل انعاش وازدهار تؤكد ضرورة وجود سوق تجارية لتبادل السلع وخزنها واعادة تصديرها. وبالضرورة أيضا، لابد من سور يحمي المدينة الصغيرة وتجارتها وبيوتها. وقد استطاعت البحوث العلمية والميدانية ان تعثر على أجزاء من هذا السور، الذي ظهر انه نصف دائري؛ حيث يكمل البحر النصف الثاني.

يقول الدكتور عبد الستار العزاوي الذي يقوم بعملية ترميم البيوت القديمة في هذه المنطقة، هذا السور وجد لحماية المكان وتوفير منطقة آمنة للقوافل وتجارتها وخزن البضائع.. وعلى الرغم من أن التجاوزات الحديثة لم تترك فرصة لتحديد مساحة المنطقة، إلا أن بعض أجزاء السور تعطي إشارة الى أن المدينة كانت على شكل هلال باتجاه البحر. وعليه فقد جاء السور على شكل هلال، بينما هو دائري في حالة المدن الصحراوية، وفي كلتا الحالتين يكون هدف الأسوار دفاعيا، والأبراج جزء من الوظيفة الدفاعية، حيث يوجد في منطقة الشارقة القديمة «برج الجبس» ،وكان ضمن قصر الحاكم قبل حوالي 200 عام، وهو نافذة شاهقة تطل على البحر لمراقبة الأجواء في حالة وجود أخطار من الخارج، وتحديدا من البحر.

ولم تكن تجارة المدينة هامشية، فقد أكدت البحوث الميدانية على

ان حجم التجارة وحركة القوافل والتبادل والتصدير من السعة بحيث اقيم في المكان سكن واسع وبناء ومخازن، وعثر على بعض المسكوكات والعملات المتنوعة، مما يدل على التعامل التجاري الواسع في منطقة الشارقة القديمة، والأبعد من المحلي.

واضافة الى تجارة اللؤلؤ، فان أهل المنطقة كانوا يربطون البحر بالصحراء في عمليات تجارية واسعة، وهم جزء من اهل الخليج الذين يزودون الخط البحري الذي يصعد مع الساحل الغربي للخليج الى منطقة البصرة، والخط الآخر الذي يصعد الى الهند والصين وما يعرف قديماً بطريق «الحرير»، ومن البصرة تنقل البضائع عن طريق الخطوط القديمة الى الكوفة ومنها غربا الى بلاد الشام ومدينة تدمر. وهذا الخط يعرف بدرب «الساعي» لوجود محطات للقوافل وسط هذا الطريق.

ومن الجانب الغربي وعن طريق التجارة مع منطقة الشارقة يتم توصيل البضائع الى المناطق الصحراوية وعمان، والى الجانب الغربي حتى تصل الى اليمن وقلب الجزيرة العربية، وبخاصة منطقة تهامة. ومن خلال هذه الحركة تبرز اهمية المحطات التجارية، التي تبدو منطقة الشارقة القديمة واحدة منها، اضافة الى محطات أخرى بالأهمية نفسها مثل قصر «الزباء» في منطقة جلفار (رأس الخيمة حاليا)، والجميرا (دبي حاليا) وهي منطقة تجارية فيها سوق ووحدات سكنية وقصر لاستقبال القوافل، يقول عنه الدكتور عبد الستار العزاوي ان أسسه موجودة حتى الآن، وهو من اهم المناطق التي تحتاج الى عمليات ميدانية وبحوث علمية لابراز دورها.

وفي غفلة من تلك المحطات وبيوتها وتجارتها مرت قوافل السنين، فكان لابد من الاسفلت و«الكونكريت» والاتصالات والطيران والسيارات. لكن منطقة الشارقة القديمة بقيت في انتظار يد تمتد اليها بالترميم والمحافظة والاهتمام، حيث بدأت منذ فترة دائرة الثقافة والاعلام بفتح الباب أمام اعادة النبض الى المنطقة وتشكيل فريق عمل يضم خبراء من الامارات والوطن العربي، اشرف عليه الباحث والآثاري ناصر حسين العبودي.

عمليات الترميم بدأت بمنزل عبيد بن عيسى النابودة، وهو احد المنازل القديمة (200 سنة) في منطقة الشارقة، حيث سكن عدد من العوائل منذ عشرات السنين، ومنهم الشامسي والطويل والمدفع والنابودة والمحمود والنومان والمزروعي والعبدول.. ويشير التاريخ المتأخر للمنطقة (بين 100 و200 عام) الى أنها كانت مقسمة الى مناطق عدة، صغيرة ومتجاورة،وهي بأسماء ساكنيها من العوائل الغنية والكبيرة، مثل فريج بوكندر، وشويهين، بن درويش، المدافعة، المزاريع، وهذه المناطق كلها تتوزع على منطقتين أساسيتين هما المريجة وشرق.. وتعني كلمة المريجة باللهجة المحلية انتقال البحر بين حالتي المد الجزر، ويقولون عنه انه البحر «يسجي ويثبر».

كان الماء يرتطم بعتبات الدكاكين المطلة على الساحل، بينما الشيخ محمد المحمود يفتح بيته لاستقبال أبناء المنطقة لتعلم القرآن والتعاليم الاسلامية وبعض العلوم الأولية، وسط ضجيج الأسواق: سوق العرصة، سوق البدو. ويشير احد سكان منطقة المريجة القديمة الى ان احمد بورحيمة كان أيضا يستقبل التلاميذ

لتدريس القرآن.. إلا أن الحاج محمد بن عبيد بن عيسى النابودة يشير الى وجود مدرس آخر قبل محمد المحمود وأحمد بورحيمة وهو أحد الشيوخ، الذي جاء من المملكة العربية السعودية واسمه صالح الخليف «تعلمت عنده الكتابة، ثم ذهبت الى بومباي وهناك تعلمت القرآن».

محمد بن عبيد بن عيسى النابودة ملتصق بمنطقته الى الحد الذي جعله لايخرج الى أبوظبي مثلا: «مرة واحدة في حياتي زرت فيها أبوظبي». لكنه يبدو سعيدا جدا لعمليات ترميم المنطقة، خصوصا منزل والده الذي يعد من المنازل الكبيرة لوجود ساحة واسعة أمام المنزل، وساحة أخرى في الداخل وعدد كبير من الغرف ونظام تهوية يعتمد على الفتحات المتصلة من السطح الى أسفل الغرفة عبر الحائط. وقد جرت عمليات فنية للحفاظ على نفس الطابع المعماري والمواد الأولية والأشكال الهندسية للبناء القديم، الذي يبدو انه نتاج ظروف بيئية وطقس وطبيعة اجتماعية وثقافية، ومكونات اساسية تجتمع في دائرة واحدة: المسجد، السوق، المنزل، المجلس.

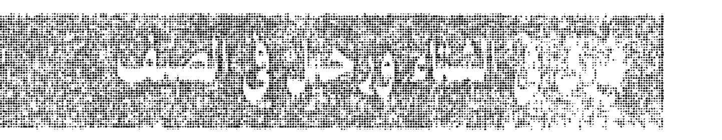
يقول الدكتور عبد الستار العزاوي: «خلال التنقيبات عثرنا على بعض المعالم التي توحي بالقدم، وخاصة «المدبسة» تحت احد الدكاكين بعمق متر الى مترين، وهي عملية صناعة الدبس من التمور، وتدل على وجود حركة تجارية وصناعية». وقد كانت عملية التبادل السلعي بين الصحراء والبحر تتم في سوق المريجة حيث يأتي البدو ببضائعهم: العسل والسمنة والحطب، ويشترون الرز والملابس والسكر والشاي. وتحسبا لأيام الجفاف والقحط

كان الناس يخزنون في بيوتهم المواد الأساسية، ما يفسر وجود غرف خاصة لهذا الغرض في البيوت القديمة.

وقد أعادت عمليات الترميم للمنطقة معالمها، التي جعلتها منطقة سياحية تنبض بالحياة من جديد، وهو ما يدعو الى ضرورة الاهتمام بالمعالم المماثلة في مناطق اخرى من الامارات.

وقد شملت عمليات الترميم بيت النابودة وسوق المريجة والمدرسة التيمية ومربعة قريشات ومربعة قرية الخان.

ووسط صلابة الاسفلت والبناء المسلح، لابد من مساحة رمل، ومئذنة من الطابوق والخشب، وأناس يقولون «هذه مدينتنا الأولى».■



غرق في الشتاء و رحيل في الصيف

غرق في الشتـاء ورحيل في الصيف، تلك هي الشندغة قديما، التي تقف اليوم بارتفاعها المتواضع شاهدة على بدايات صلبة.. ومع ذلك فقد اختارتها النوارس المهاجرة لتخلع عليها بياضها الناصع وتصفق بأجنحتها للمراكب الصغيرة التي تصطف على جانبي خور دبي محملة باللؤلؤ والرجال والابتسامات.

بين جدارين لم يخفيا ملامحها الاولى ـ رغم الترميم الحديث ـ كان ذلك الممر الضيق يوحي بمتعة القيلولة بعد غداء صيفي في الهواء الطلق.. لكأن تلك المساحة الضيقة كانت في قلب المكيف ثم خرجت لتملأ الذين يمرون فيها برائحة الخدر و.. الذكريات!

في الطرف الثاني من هذا الدهليز المتعرج بيت لم تره الشمس، ومع ذلك لابد من «المهفة» التي لا تخفي اليد المكابرة، بينما الفتحات الحديثة في الجدران، مملوءة بالكتل الحديدية الصامتة!.. أين أنت ياعم جامع بن خميس، لقد بحثنا عنك كثيرا!؟ لماذا يغيب

عنا اولئك الطاعنون في الوحدة والازمنة؟!

جاءت الضحكة العالية المتواصلة من الغرفة (الداخلية) جوابا مزدوجا، او مزيجا من المشاعر التي لا يعني اكتشافها سوى مزيد من الحيرة والاسئلة! اذن، هذا بيت من بيوت الشندغة، وهذه الشندغة ذاتها؛ بوابة دبي الاولى وشرفة النوارس المهاجرة ترتفع قليلا باعلامها الصغيرة فوق الاسطح، لتفصل بين البحر والخور معلنة الحياة منذ مئات السنين! ومثلما التصقت السنوات دون ان تترك فسحة لهذه المنطقة ان تتنفس، التصقت البيوت الى بعضها كأنها بيت واحد وجدار واحد وبوابة واحدة، فالدهاليز تؤدي الى بعضها والساحات القليلة الضيقة مفروشة بالرمال وآثار الرجال القادمين من رحلة الغوص، يتسامرون قبيل الغروب.. هل غاب عنها اولئك البحارة ونسوا السردال جمعة بن عبد الله الاملح الذي لا احد يغفله وهو يبحر الى الاعماق.. بحثا عن اللؤلؤ!

قال احد سكانها الذي كان يقف في مبنى بلدية دبي يحمل احدى المعاملات الخاصة بأملاكه العقارية: لا احد ينسى الشندغة، والدليل هناك في ميناء (جميرا) حيث يلتقي الاوائل في «مرامس» المساءات «يرمسون» عن الماضي! إذن، لابد من ميناء جميرا. لكن اولئك الرجال مملوءون بالوفاء لتاريخ الشندغة، وهم يشيرون باصابعهم الى ميناء الحمرية حيث يلتقي الاقرب الى حياة تلك المنطقة.. هل تعذر الوصول الى هذا الحد؟ ربما اكثر من ذلك. فالتاريخ رجل صعب لا يصل اليه عابر سبيل، ولا يجده احد في

الطريق العام، مالم يتوقف كثيرا في التفاصيل..

وفي التفاصيل تعذر الوصول ايضا، يقول صقر بن عبيد «انا من سكان الشندغة، لكنني افضل الذهاب الى جامع بن خميس بن فيروز». وفي ذلك الممر الضيق وقف «ياأهل البيت.. هل من أحد هناك؟» وبعد قليل كان ذلك الجالس عن 74 سنة يبتسم مرددا كلمات الترحيب والتعجب: لماذا هذه الزيارة؟ بل ليكن السؤال معكوسا: لماذا انت هنا بينما هذا العالم من حولك يرفل بالجديد والانتقالة تلو الاخرى، ألم يكفك كل هذا العمر في غرفة واحدة؟

«هنا اجد نفسي اكثر من اي مكان آخر، فأنا منذ ولدت في العام 1916 والشندغة هي ذاتها، لعبت في ازقتها ودرست في كتاتيبها، عند المطوعة فاطمة والكاتب الشيخ عبد الله بن موسى مع عدد من أهل المنطقة وشيوخها».. هذا الجالس الآمن في بيت «شندغي» لم يكن يستطيع الجلوس هكذا قديما، فالشتاء كان يدفع البحر لحالة غاضبة بينما تروح امواجه في ارتفاع حاد تعبث بالمنطقة التي تغطيها المياه فتغرق الا قليلا، حتى يذهب الماء الى الخور، فيحل فصل الصيف، وهنا يبدأ موسم الجفاف وتبدأ الناس رحيلا عاما الى «البراحات» حيث النخيل والمياه، وهي منطقة حصن الفهيدي ومناطق النخيل وعمان ورؤوس الجبال طلبا للماء، وهربا من الحرارة القاسية.

كانت الشندغة عبارة عن «حالة»، وهي منطقة يغطيها البحر في موسم، ثم يكشف عنها في موسم آخر، وهي شبيهة بمنطقة

«الغبيبة» قديماء وهي منطقة بين الشندغة والفهيدي قرب المربعة، وتوجد ايضاً «غبيبة» في الشارقة.

واول من سكن الشندغة ـ كما يقول جامع بن خميس ـ هو الشيخ سيف وهو رجل دين، ثم تعددت البيوت وأبرزها بيوت شيوخ آل مكتوم من الشيخ مكتوم بن حشر وحتى الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، وعبد الله بن مطر الصيري وناصر بن حارب وسعيد بن سيف وناصر وبيت الشيخ مبارك وبيت بوجسيم وبيت حشر والدليل وبن مانع والشيخ جمعة بن ثاني، وحميد وعبيد البسطي، وحارب بن حارب، وبيات بن محمد، ومطر بن لاجح، وابراهيم بن كلبان، ومحمد بن سعيد الكندي. وأول مسجد في الشندغة بناه المر بن حريز وسمي باسمه «الا اننا نذهب يوم الجمعة الى المسجد الكبير في بر دبي حيث كنا نعبر الخور بواسطة المجاذيف او سيرا على الاقدام عن طريق نهاية الخور».

غواصون وصيادو سمك و «سفارة» يأخذهم البحر شهورا ثم يعودون الى اهلهم. هكذا كانت الشندغة التي تجمع في الصيف تحصينات رملية عند عتبات البيوت خوفا من مهاجمة البحر شتاء، بينما يظل البعض في الشتاء مشغولا بجمع مياه الامطار لاستخدامها في الصيف.. «لكن الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم وضع حدا لهذه المعاناة فبنى الموانيء واسس انجازات كثيرة؛ في الماء والكهرباء، وعندما كنت اقف على اعتاب الشندغة، وانظر الى الجانب الآخر من الخور، لم اكن اشاهد غير الصحراء وبعض

بيوت السعف، بينما اشاهد اليوم عالما آخر، نشاهده جميعا». ورغم ان جامع بن خميس يملك بيوتا عديدة خارج المنطقة، لكنه يفضل البقاء في بيته القديم «لانني احب هذه المنطقة، حتى في مواسم الرحيل لم اكن اسافر ولم ارحل الى الغوص. بل انني كنت اقضي وقتي في «المرامس»؛ مجالس الرجال الذين كانوا يأتون من الغوص فيضعون اموالهم عند صاحب البقالة، وهذا بدوره يوفر لهم كل شيء. وعند موسم السفر يقول لهم عليكم ديون اضافية.. وهكذا! هذه المجالس مفتوحة ليلاً نهاراً، فالعمل بغير الصيد او الغوص لم يكن مقبولا اجتماعيا».

تلك البساطة والحياة الهادئة، لم تكن محفوفة بالفقر الى الحد الذي وصلت اليه بعض المناطق الاخرى. ويقال قديما «ان القحط الذي عم مناطق الخليج في فترات محدودة، لم يكن يعرف دبي ابدا، فتجار دبي كانوا معروفين منذ القدم باعادة التصدير، حتى ان الرز والتمور كانت تخرج من الشندغة الى المحيط القريب والبعيد عنها. حتى ان ايام رمضان المبارك والاعياد كان يحصل ما لم يحصل بعضه اليوم».. يقول ذلك جامع بن خميس ولا يخفي حسرته على أيام زمان.

بيوت معروفة لبعضها، واسماء لها حضور اسري، لم يكن الغريب يستطيع ان يخفي نفسه حين يدخل الشندغة. والصغار في الازقة يلعبون «التيلة، والشولية، والطرة» ،بينما المطوع جمعة والمطوعة فاطمة يرددان على «التلاميذ» آيات من القرآن الكريم

دون معرفة بالكتابة، وهنا يأتي دور الشيخ عبد الله بن موسى الذي يكتب عنده «التلاميذ» بعدما يقرؤون عند الآخرين.. وحين يخرجون، يتجمعون حول «هاويّة» أو الكندري وهو يبيع الماء ويصيح «4 تنكات بروبية واحدة» وفي جيوبهم بعض التمر، الذي كان التجار يأتون به من البصرة بعد ان يأخذوا اليها (الخبيط) وهو نوع من السمك البحري.

الشندغة وغيرها من مناطق دبي اليوم تحولت الى معنى مطابق لذلك الاسم اللامع على سواحل الخليج «اللؤلؤة».. حقاً ثمة بريق يصعد الى مستوى الاعجاب في السباق مع الزمن..■



مهرجان الاسواق

أزقة باتساع الرزق الحلال، ودكاكين مرتفعة عن الارض.. هي اسواق دبي القديمة، هي نبض الحياة التي تعانق وجه دبي، المتجذر في عالم التجارة واصالتها عبر العصور. كل شيء فيها يدعو الى التامل، والمتجول فيها يجد نفسه رغم انه يضيع في خريطتها!

خميس بن سعيد الربيعة يبيع الكتب في سوق السبخة، ذلك الرجل الطاعن في السن والبساطة يثير دهشة المتجولين في اسواق دبي القديمة! ربع القرن على الرصيف تحت مظلة بالية وعشرات الكتب القادمة من مصر والهند وسوريا والكويت والعراق، لا يقربها احد سوى اولئك الباحثين عن «دلائل الخيرات» والسير الذاتية لصانعي الملاحم البطولية في التاريخ العربي والاسلامي..

هل يتذكر هذا الرجل مفاتيح هذه الاسواق؟ «هل تسألني عن عمري؟ كنت في الخامسة تقريبا حين شب حريق هائل في «سكة الخيل». ذلك كل شيء». من حقه ان يرفض التواريخ؛ فهذه الذاكرة

الطيبة ممنوعة من التشتت والاختلاط الملوث، متجهة صوب بساطتها واجوائها المقعمة بالسهولة، ولماذا ينبغي على المرء ان يفتح له عينين في كل مكان من رأسه؟ ومع ذلك ليس سهلا على المتجول في الاسواق القديمة ان يمر دون ان يسأل مندهشا: ماهذا؟ انه عالم واسع بصغره، ومهرجان من المتعة والرزق؛ سوق السبخة، سوق مرشد، سوق نايف، سوق الغنم، سوق الظلام، سوق المناظر، سوق السخام، (سوق الدويات) اي الادوية، سوق الصنادق، سوق الذهب.. واسواق بنكهة واحدة تعرفها انوف القدامى الباحثين فيها عن افضل انواع التبغ والحناء والزهورات والحلول وماء الورد والزعتر. وضرب من المستحيل ان يواصل المتجول عد السلع والبضائع في زواياها وأسطحها وارصفتها، مثلما هو من الصعب ان يتعرف على مستوى درجة التعامل اليومي او الاقبال الذي تلاقيه هذه المادة او تلك. اختصار رائع ذلك الذي قدمه العطار السيد شرف سلمان «رزقكم في السماء وما توعدون». لكن الامر لم يتوقف عند مفهوم التسوق في هذه الاماكن، فالسيد شرف سلمان طبيب يداوي الناس رغم انه طاعن في عمرين؛ الاول لا يعرفه، والثاني «منذ ستين سنة وانا هنا في هذا السوق اعالج المرضى بالاعشاب التي تأتي من ايران والهند وافغانستان والامارات ايضا، هذه «البعدة» لمعالجة الحمى و«المصوفة» لمعالجة الكبد، والزهورات والورد ومئات الاعشاب التي قرأت عنها في الكتب القديمة مع اخي ووالدي وجدي، ولقد تجولت بين الامارات والبحرين والكويت وعمان والبصرة.. هل يلومني احد حين يراني لوحدي في هذا المكان؟ مشكلتي ان العمر

اخذني، واي عامل او مساعد لي سوف يكون مصدر اخطاء، لذا افضل ان اقوم بكل شيء ولا استعين بأحد».

كذلك لأحد يستطيع ان يصف اسواق دبي القديمة من الخارج، انها تجربة الرؤية المباشرة، وتجربة البحث عن تواريخ ضائعة في حركة لا مثيل لها، أليست هي الاسواق؟ فقد مرت عليها ملايين الاقدام وتجولت بينها ملايين العيون، بينما لم يغفل الزمن تلك الجدران والسقوق المنقوعة بعرق التجارة الحقيقية، ذات التقاليد التي جعلت من دبي اسطورة تجارية تقف في مقدمة المدن القريبة والبعيدة على السواء. كل مطلع شمس يقدم خور دبي شهادته الاكيدة على ريادة اهل دبي وتوقهم ومعرفتهم الواسعة بالحياة التجارية منذ القدم، والمتجول في السوق الكبير او سوق بر دبي يحس بهبات النسيم القادمة من الخور المجاور للسوق باحتضان مهيب.

هنا كان مقر حكومة دبي، ورذاذ موجات الخور يغسل وجوه الآلاف من الباعة والتجار والمتسوقين، بينما تقف بعض الشرفات الخشبية المنهكة، والبراجيل الشامخة في حركة عمرانية توحي بجذورية هذه المنطقة الضاربة في الزمن..... لكن الزمن يبدو انه نسي الحاج محمد عبد الله الذي جلس بين اكداس الاقمشة بكل ما يعرفه الاندفاع من قوة وارادة وحب الحياة «هذا هو مكاني منذ اربعين سنة، كل شيء من الاقمشة هنا ولا استطيع ان اصف الفرق بين الاسواق التي تجولت فيها وهذا السوق، انها دبي وكفى». ولا شك في ان خير الكلام ما قل ودل، بخاصة ذلك الخارج من رأس مجرب وليس حكيما، كما يقال.

وما يميز السوق الكبير عن غيره من الاسواق القديمة، انه يشهد كل يوم حركة ذات خصوصية لا مثيل لها، انها «العبرات» التي ترسو عند رصيفه والقادمة عبر الخور من جهة «ديرة»، هذه العبرات تنقل يوميا آلاف المتسوقين في حركة من الصعب ان يغادرها المشاهد دون اثر في نفسه.. انتقال سهل وسريع على الطريقة القديمة، أليس هذا هو عصر السرعة؟ اذن، لا بد من خمس دقائق فقط وتكون «العبرة» الصغيرة قد قطعت المسافة. ثم انتشر الركاب في اتجاهات مختلفة، ولا تكاد تنتظر دقائق على صوت المنادي عبرة.. عبرة حتى تعود محملة ثانية الى الجهة الاخرى! إذن، خذنا معك ايها العبار «انا اعمل هنا منذ اربع عشرة سنة، والحمد لله احصل على اجور جيدة ولا احس بالتعب، فالخور متعة وحركة الناس تبعث على الراحة». ذلك هو خدابخش حاج محمد، العبار الذي لا يبدو عليه انه سينطق بكلمة، لكنه مع ذلك قال جملته ومضى متوغلا مع راكبيه في الخور..

في سوق «الخيام»، الذي كان مسقوفا منذ انشائه بقماش الخيم والسعف، ومن هنا جاءت تسميته، تتصاعد رائحة التبغ! لكن مطر عبد الرحمن مصر على استنشاق كافة الانواع ليختار تبغه المفضل، حيث تصطف الدكاكين الصغيرة المرتفعة عن الارض في دهاليز شبه مظلمة تبعث في النفس معنى المدينة العريقة والناس الملتصقين بها منذ مئات السنين. ولا يكلف محمد عباس نفسه عناء القيام الى بضاعته ليقدم للزبائن طلباتهم، فقد وضع كل شيء في متناول يده وهو جالس «افضل انواع التبغ هو في حتا وعمان، والنوع الجيد هو التبغ الحجري الذي يزرع في الجبال او في وادي

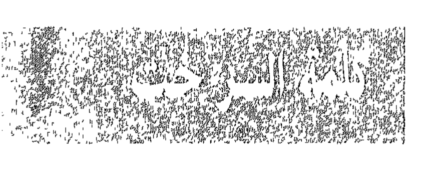
الحلو والمنيعي وحتا.. واسأل هذا النوخذة».

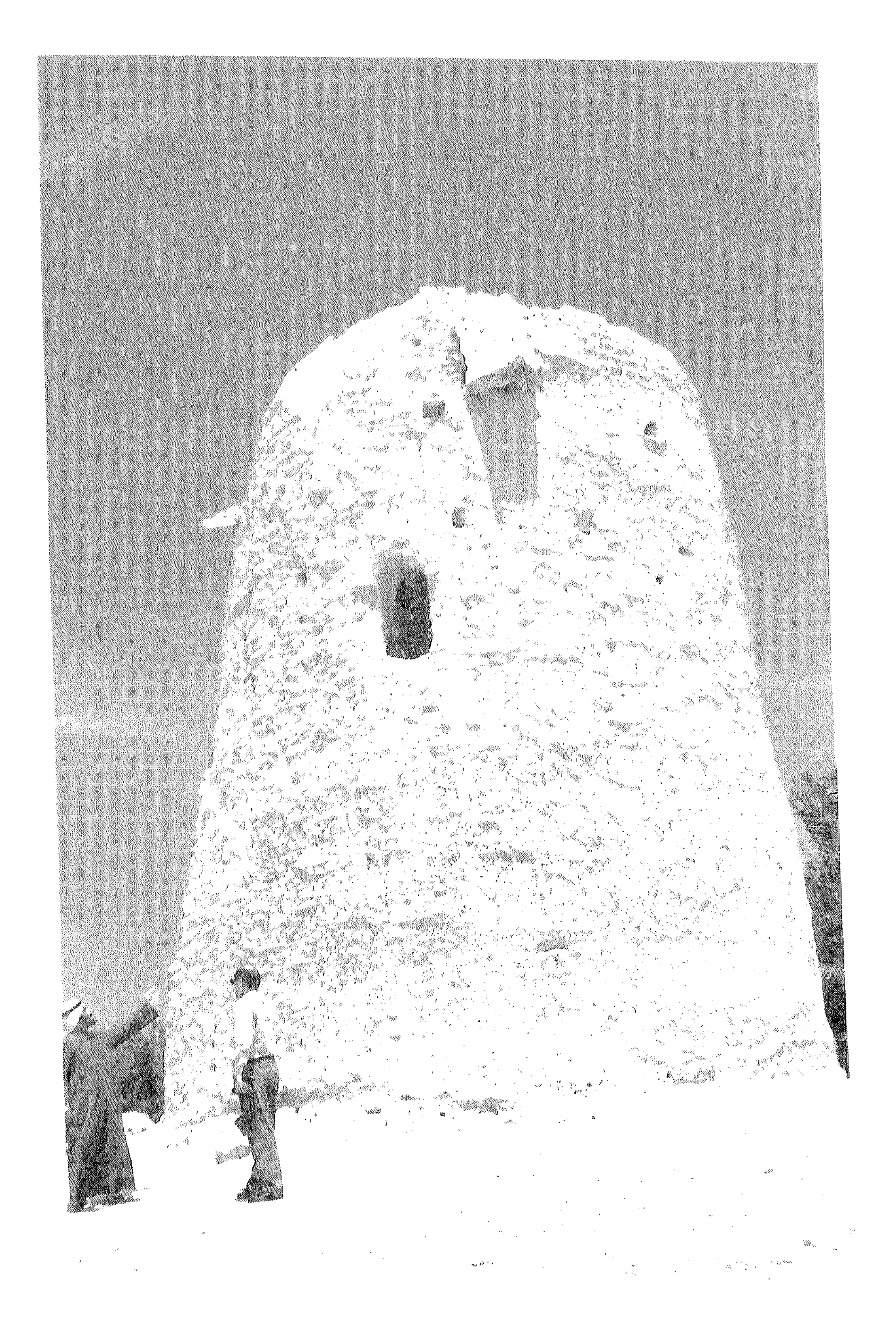
كان النوخذة مطر عبد الرحمن منشغلا باختيار تبغه المفضل «هؤلاء علموني على «القدو»، لقد كنت بحارا وكانت أياماً جميلة تلك التي نلجأ فيها الى «المرامس» والمقاهي حيث صوت «القدو» يطرب النفس ويزيل عنها الهموم، لكنها مرت مثل الطير! لقد كنت طفلا في الثامنة عندما بدأت اعرف هذه الاسواق وخاصة سكة الخيل، حيث تتسابق الخيول في هذه المسافة قبل ان تتحول الى سوق، ونعرف حتى الآن فرسانها امثال الشيخ ذياب بن هلال آل نهيان والشيخ خليفة بن سعيد آل مكتوم وغيرهما من الذين كانوا يقفون على الخيل وهي تركض، او يعبرون على بعضهم في مهارات فروسية صعبة.. هذا الكلام منذ خمسين سنة، ثم تغير المكان الى سوق وامتد الى اسواق اخرى متشابهة بدأت ببيع الخناجر والفحم والملابس».

كل يأخذ نصيبه: البائع والتاجر والمشتري، البناء والزمن والمدينة، والنهار والليل. واذا كانت المحلات الواسعة واللمسات الحديثة في العرض والمادة تغري المتجول على الدخول اليها، فإن تلك المرأة الطاعنة في السن، الجالسة على الرصيف وامامها بعض المواد المتفرقة، هي الاخرى تغري على التوقف عندها بل التوغل في عالمها الصغير «كل شيء هنا للحريم، هذه ادوات الزينة القديمة التي لم تمر على شركات الازياء والتجميل، بل هي من الأرض الى الشفاه والخدود والشعر.. هل تصدقون؟ هذه بدرهم واحد، وهذه اربع بدرهم و..»! وكأن قطعة من زمن غابر سقطت هنا متجاهلة ما حولها من اسعار تكاد تصعد الى مستوى الدهشة، كل الآلات

الكهـربائيـة وكل انواع الحرير، وكل اشكال الملابس وغرف النوم والـزيـنة والعطور و.. يقـول احـد التـجـار «هل تعلم ان عشرات الموانىء والطرق البحرية والبرية ومئات العمال والتجار والاسواق تعمل على هذه البضائع المتناثرة في اسواق دبي القديمة»؟

فليس لهذه الاسـواق وجـهـها الواحـد، إذاً. انها ذاكـرة وطن وتاريخ شـعب ومـادة خلاقة لتكوين بناء حقيقي قائم على اسس من الثـقـة والمحـبة والتنافس الشريف... هل نعود الى ذلك الطبيب واعـشـابه ومـصادر علمه؟ «لقد حصلت على كتب عديدة تتحدث بالتفصيل عن الطب الشعبي، وكل كتاب أقرؤه واحفظه كاملا، ثم أبيعه حين يأتي لي بسـعر جيد!!».■





كلمة السر خت

استكشاف المجهول والبعيد من الهوايات المفضلة لدى الانسان على مر العصور، ويتصدر المكان قائمة المغريات بالبحث والتنقيب، ومن المكان نكتشف الزمن والوجوه والعادات وجزءا من الحياة المختلفة.

وفي بدايات الستينات كانت المؤسسات المعنية بالتاريخ وبعض علماء الآثار والمثقفين وهواة الاسفار، ينطلقون بعيدا في مجاهل الصعيد في مصر ومدن شمالي افريقيا وسواحل الخليج العربي، وهذه الاخيرة شكلت في تلك الفترة تحديا للكثير من هواة الكتابة عن المكان، ومنها مدينة جلفار التاريخية في القرون الوسطى، ثم مدينة رأس الخيمة التي احتضنت ملامح جلفار نفسها، ولكن بثوب آخر وزمن آخر.

لم تعد رأس الخيمة مجهولة في الوقت الحاضر، حيث هي مدينة من مدن دولة الامارات، عامرة بكل ماتوفره الحداثة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، لكن اطرافها تبدو

خارج هذه المتغيرات بما فيها من آثار وعلامات تاريخية مهمة.

وفي وسط امارة رأس الخيمة، مكان بعيد عن المركز بما ينطبق عليه من صفات القرية، انه قرية (خت) القريبة من سلسلة جبال تفصل المنطقة عن سلطنة عمان.وفي الطريق الى القرية كانت المحاولة الاولى معرفة سر الاسم. إلا أن روايات عدة تشابكت على ألسنة الكبار والصغار، بينهم من يعزو الاسم الى تفجر المياه المعدنية والكبريتية من عيون في القرية. الا ان المصدر الاكثر اهمية وربما الأقرب الى الحقيقة، قد نجده في مدرسة خت الاعدادية، حيث تجتمع نخبة من الأساتذة والمطلعين، وعلى بعد امتار كان محمد بن راشد النقبي يلوح بيده مرحبا، وقدم نفسه: «أنا ناظر المدرسة منذ ثماني سنوات، عملت قبل ذلك في التدريس اثنتي عشرة سنة». وطبيعي ان تكون المفاجأة كبيرة حين نعلم ان هذا الناظر هو من أبناء «خت»، ولديه اهتمام جيد بالتاريخ، وتحديدا تاريخ قريته ومكانها منذ ثلاثمائة سنة.

«معنى خت، انتبه واستعد. هكذا كانت تلفظ «خت» في اللهجة المحلية. لما كانت المنطقة عرضة للغزوات والحروب قبل مئات السنين.

فإن كل مجموعة تدافع عن مكانها وثرواتها وبيوتها. وفي منطقة العيون المعدنية كانت تدور غالبا المعارك، ولذا فقد وضع اهل المنطقة لهم كلمة سر من لهجتهم المحلية هي «خت» بكسر الخاء. ولكنها تحولت في ما بعد الى «خت» بفتح الخاء، ثم أضيفت ال التعريف».

النظرة الاولى الى القرية تبدو من فوق احد المرتفعات مملوءة بالأسئلة. ما هي قصة هذه الأبراج الشاهقة التي تطوق المكان من جهاته الأربع؟ يقول «الختيون» ان هذه الابراج بنيت في عصر الحروب القبلية، اي ان امير كل منطقة كان يبني برجه. ويعود تاريخها الى ما بين 150 و200 سنة مضت. ففي وسط طريق خت يقع «برج النقبي»، وقد بناه راشد بن علي النقبي قبل 150 سنة. اما البرج الثاني فيسمى «برج المدينة»، وهو اعلى برج في المنطقة ويشرف على منطقة عيون المياه المعدنية، وبناه الشيخ سالم بن سلطان القاسمي. والبرج الثالث يقع اليوم وسط مدرسة خت الثانوية، وبناه الشيخ سلطان بن سالم عم حاكم رأس الخيمة الحالي، ويطلق عليه «البرج الغربي». والرابع هو: «برج بن عنبر» نسبة الى شخص من اعيان المنطقة بناه بامر من الشيخ سلطان بن سالم القاسمي.

ويعيش في منطقة «خت» نحو 1600 نسمة، يتوزعون على قبائل النقبي والشحوح. ومن النقبي خرج امراء للمنطقة بينهم راشد النقبي الذي كان معروفا كواحد من اعيان هذه المرتفعات، وله اسم لامع في التجارة والاراضي الزراعية، واليوم يتولى ابنه محمد بن راشد امارة خت. اما الشحوح فمنهم اللصمي والحبسي، وهما فخذان من قبائل الشحوح المعروفة في جبال رأس الخيمة والمناطق المحيطة مثل خت، وهؤلاء جميعا يتوزعون على «شعبيات» أربع ومساكن اخرى. و «الشعبية» هي وحدات سكنية تابعة للدولة، تقوم بتعميرها الجهات الاسكانية المختصة، وتقدمها لسكان المناطق ضمن الاهتمام والتوجه لتأمين السكن والخدمات

الاخرى لمواطني الدولة بعد قيام الاتحاد.

جولة واحدة في هذه المساحة تكفي لمعرفة ماوراء ذلك الصمت، لكأن الولادة ستتم بعد حين. ومع ذلك تبدو على وجه عبد الله هاشم راشد ملامح الشيخوخة، لكنه يرفض هذه النظرة وينادي على احد الصغار من حوله (له من العمر سنتان تقريبا) ويحمله على كتفه «هذا ابني».

وعلى الرغم من ذلك، لا ينسى عبد الله عذاباته في العمل ما قبل قيام الاتحاد، يقول: «كنت واحدا من عمال التنقيب والحفريات في الكويت، ثم قطر، ثم جزيرة طنب الكبرى (تابعة لرأس الخيمة) حيث كنت اعمل فيها في العام 1970. وكان معنا شخص اسمه احمد حاجية، يوزع علينا الدواء في الجزيرة، وهو متعلم ويعرف بعض اوليات الطب، واليوم يعمل في البنك البريطاني في الامارات. هذه الجزيرة اضطررنا لمغادرتها سنة 1971. حين خرجت القوات البريطانية، جاءت القوات الايرانية بعدها بيومين، واحتلت الجزيرة بينما اهملتنا الشركة التي نعمل معها، ورحلنا من دون ان نحصل على حقوقنا. كنت أعمل مراقب عمال وتعبت كثيرا من المشكلات، فعدت الى المدينة ومعي جمع من العمال، حتى اننا لم نحصل على آخر مرتب، وكان 300 روبية، أي ما يساوي اليوم عشرة آلاف درهم».

في مكتب محمد بن راشد امير خت وناظر ثانويتها (329 طالبا في المدرسة) حشد من المعلومات عن هذه المنطقة البكر. نسأله عن أبرز ملمح تاريخي في خت، فيقول: «خت عمرها اكثر

من ألف عام، ولكننا لا نعرف عنها الكثير». هذه الجملة نقلناها الى ناصر حسين العبودي مدير دائرة الآثار في الشارقة ومدير متحفها، فقال: «نعم وجدت آثار وعلامات تاريخية تعود الى ألف عام مضت في خت، وهذه واحدة من الهموم التي تتعبنا حيث لاتوجد خطة شاملة لمسح هذه المناطق، ونأمل في ان يتم عمل شيء في المستقبل».

ولكن محمد بن راشد يستطيع نقل ما يؤكد انتماءه لاكثر من ثلاثمائة سنة، يقول: «في خت تل يطلق عليه تل الصنم، وكان يعبده الناس قبل اكثر من مائتي عام. ويقال ان شخصا يسمى السيد برقان أسس هنا مملكته الصغيرة، وجمع حوله الناس ودعاهم الى عبادة هذا الصنم، وبنى من حوله قلعة ومنازل. يومها لم يكن يوجد اي اتصال بالعالم الخارجي، فلاكهرباء ولا نفط ولا سيارات، ولذلك صدق الناس به وعبدوا معه الاصنام. وكانت هذه المنطقة معروفة بالوثنية حتى وصل الامر الى اهل الحجاز. وكانت دعوة الحركة الوهابية قد تنامت، بينما يريد السيد برقان أن ينشر الوثنية في مقابل الوهابية. وحاول فرض سيطرته بالقوة، لكن نقطة ضعفه الوحيدة كانت ابنته. البالغة من العمر ثلاثين عاما ولم تتزوج، إذ كلما تقدم إليها احد رفض الأب وطلب منه المستحيل. ومن هذه النقطة دخل أحد أتباع الوهابية في الحجاز، وبعث اليه خاطبا ابنته. وافق السيد برقان وحدد يوم استقبال الهدايا، وفي ذلك اليوم دخلت خت أربعون ناقة كل واحدة محملة بصناديق خشبية مغلقة ويقودها شخص، وما أن وصلت الجمال الى القصر حتى تحولت صناديق الهدايا الى اسلحة وهجم قائدو

الجمال، وكانت معركة شرسة قتل فيها السيد برقان وأعوانه، وتخلصت المنطقة من عبادة الاصنام».

ولأن لكل دعوة اتباعا، فقد ظهر في ما بعد اتباع السيد برقان واقاموا حول قبره شعائر التعظيم وحاولوا اعادة بناء القلعة.

هؤلاء الذين نجوا من القتل حولوا المكان مزارا يطوف حوله الناس وينذرون الهدايا والبخور أمام القبور التي كانت طويلة جدا وعليها شواهد ضخمة. ونظرا لجهل الناس بعد عشرات السنين، فانهم اعتقدوا بانه ولي من اولياء الله، وتحول الى مزار من نوع آخر يتقرب فيه الناس الى الله، وهذه مفارقة اخرى، حتى انهم يأتون بالفاكهة والأموال والمياه والبسكويت الى هذا المزار، واستمرت الحال حتى العام 1960، عندما قرر الامير راشد النقبي القضاء على هذه الظاهرة، ووجه الناس الى حقائق الأمور. واليوم يبدو المكان مقفرا، عليه صخور كبيرة مبعثرة، وبقايا برج وجدران فوق مرتفع يطل على القرية.

في الطرف الآخر من القرية، أشار سيف وعلي بن سعيد (فتيان من قبيلة الحبوس) الى تل آخر تقف امامه الجرافات لاقتلاعه وتسويته بالأرض. هذا التل يطلق عليه اسم ند الزباء، وبينما نحن نصعد اليه جاء احد العمال يسأل، فقلنا له ما حكاية هذا التل؟ قال: انه موقع اثري قديم يقال ان تجارا من مملكة تدمر كانوا يبيعون البضائع فيه لمصلحة الملكة زنوبيا، وقد تأكدنا من هذه المعلومة على لسان اكثر من شخص. والآن يريد صاحب هذه الارض بناء بيت هنا بعد اقتلاع هذا التل. لقد طلبت منه

جـهـات مختـصـة بالآثار في رأس الخيمة أن يعدل عن هذا العمل، لكنه رفض لأن الأرض ملكه، ومن حقه ان يقيم هنا بيتا.

ويتـذكـر اهل خت انهم ليـسوا من البحارة ولا من صيادي الأسماك أو اللؤلؤ، بل هم مـزارعـون عـرفـوا زراعة النخيل منذ القـدم. يقول عبيد بن علي محمد:«كنا ننقل الحطب وسعف النخيل على الحـمير الى المدينة، ونبـيع هناك الحمولة بدرهمين، كانت هذه واحـدة من المهن الاساسية، غير العمل في الطين وصناعة الطابوق البدائي. واليوم تكاد منطقة خت تكون سياحية نظرا لوجود ثلاث عـيـون ماء معدنية وكبريتية، اثنتان للرجال وواحدة للنساء. وقد اقـامت حـولها حكومة رأس الخيمة بناء حديثا وصارت تستقطب الناس من كل مكان، حـتى ان بعض الامراض الجلدية وجدت هنا شـفـاء كـامـلا بينهـا امـراض الحساسية، وقد زارنا مريض من البـحـرين قـبل 15 سنة وشـفـي من مرضه الجلدي المزمن، هذه العـيـون اليـوم ومـا حولها تسمى «المنتجع السياحي». وهي حقا منتـجع سياحي بشرط الاهتمام بآثارها ومعالمها التاريخية بشكل يحفظ لها تميـزها من بين المناطق الحديثة التي انشئت حولها وفي اطـراف كـثـيرة أخـرى ضـمـن الـتـطـور العـمـراني والسكاني الحديث».■

سجن القلعة .. متحف



سجن القلعة .. متحف

المكان كائن، يتطور، ينمو، يشب ويهرم، وفي كل مرحلة يؤدي وظيفة. في رأس الخيمة اقيمت القلعة للحماية، فصارت مسكناً للحاكم، ثم مقرا للشرطة، فسجنا، ومؤخرا صارت متحفاً وطنياً يحوي ذكريات رأس الخيمة وملامح اصالة الانسان في الامارات.

«جلفار» تنهض من جديد. تعيد حكايات الصراع من أجل الوجود، وتمتد على مساحة طولها التاريخ وعرضها الشواهد الدالة على عراقة وجذور الانسان في هذه المنطقة من الخليج.

و«جلفار» هي «رأس الخيمة» التي تستقبل كل فترة اكتشافاً جديداً، لأثر قديم هنا أو هناك، مشيرا الى مرحلة حضارية من مراحل تاريخ الامارات العربية.

حصون وأبراج وبنادق وسيوف وأحجار تربط أجزاء الماضي في وحدة زمنية تؤسس رأس الخيمة اليوم، ابتداء بحياة الانسان

العربي الخليجي منذ آلاف السنين وحتى الحروب الطاحنة ضد أساطيل البرتغاليين والانجليز.

ومن لم يتتبع الأحداث والمعارك البحرية التي خاضها القواسم ضد عشرات الأساطيل الاجنبية، لا يستطيع ان يعرف رأس الخيمة، تلك المنطقة الواقعة على مخلفات السفن الحربية وآثار الحصون والأبراج والقلاع التي كانت تشهد اكبر عملية صد للغزاة.

من رأس الخيمة خرج البحار العربي المعروف، «ابن ماجد» ليشق طريقه الصعب الى رأس الرجاء الصالح، ويقود اول رحلة استكشاف بحرية، ويؤسس مدرسة في علم البحار من خلال تأليف وكتابة عشرات الكتب والرسائل والدواوين الشعرية المتخصصة في علوم البحر. وقد اعتمدت على علمه ومعرفته بالبحار، بعثات اجنبية عديدة كانت تصل الى ابعد النقاط في البحار بمعرفة ابن ماجد.

ورأس الخيمة مثل بقية مدن الامارات تحتفظ بطابع مميز في ميدان التراث الشعبي؛ حيث الرقصات والايقاعات الشعبية، وأغاني البحر وصيد اللؤلؤ وأغاني الافراح والمناسبات الوطنية.

تلك الموجودات وما انجز حولها من دراسات وبحوث وما تم العثور عليه مؤخرا في عمليات تنقيب عن الآثار. كان لابد لها ان تجمع في مكان واحد، لتؤكد أهمية المنطقة عبر العصور، ولتكشف للأجيال انجازات وحياة الاجداد. لذلك كان متحف رأس الخيمة الوطني.

المتحف قلعة يعود تاريخها الى القرن الثامن عشر الميلادي، وانشئت لحماية رأس الخيمة من الهجمات الخارجية، وفق طراز معماري يترجم القدرة على حماية المدينة في زمن الحروب والهجمات من البر والبحر. وحتى عام 1964 كان هذا الحصن يستخدم كسكن للأسرة الحاكمة، ليتحول فيما بعد الى مقر مديرية الشرطة برأس الخمية، كما استخدمت أقسام منه لتكون سجناً.

لكن السجن أصبح معلما من معالم تاريخ رأس الخيمة وعمقها الحضاري، مضاء بلوحة كبيرة تقول: (متحف رأس الخيمة الوطني)، وصار أقساما تضج بالآثار والتفاصيل التاريخية الحية، التي تم جمعها والعناية بها بجهود مكثفة من الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، وبالتعاون مع العديد من البعثات الآثارية والمهتمين بهذا المجال.

فقد اشتهرت رأس الخيمة بالابراج حتى بلغ عددها خمسين برجا، وللقلعة سوران؛ الاول يمتد حتى خور رأس الخيمة حيث يوجد برج الحلو، والثاني يمتد الى برج بوشاك، اي أن القلعة كانت محاطة بالبرجين، وتم تشييد الحصن في زمن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، وجرت عمليات ترميم واسعة فيه بأمر صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الاعلى حاكم رأس الخيمة، وشملت جميع مكونات الحصن (56 غرفة) واستخدمت في ذلك الأحجار والجص المحلي مع سعف النخيل، بحيث تمت المحافظة على الطابع القديم للمبنى.

وعادة ما تبعث الآثار نوعا من الفضول لدى الانسان، لانها

تكشف أمامه عن تاريخها السحيق، فيلتقي مع رغبة الانسان في معرفة من سبقوه عملا وحياة وبيئة. والجولة في غرف المتحف تعطي صورة كاملة عن اقسامه ومحتويات كل قسم منذ بدأت عمليات مسح الآثار في رأس الخيمة التي قامت بها الباحثة الانجليزية «بياترس دي كاردي» بتكليف من الحاكم.

فقد ضم القسم الأول التاريخ الطبيعي من كائنات متحجرة منذ ملايين السنين وأصداف بحرية، أما الثاني فيشمل الاواني الفخارية والحجرية والسهام البرونزية التي استخرجت من مدافن رأس الخيمة مثل (شمل، ضاية، وادي القور وفشغا). وضم القسم الثالث غرفة النوم العربية، وهي نموذج بسيط مجهز بالأدوات الضرورية لطبيعة الحياة العربية في ذلك الوقت. والى جوارها توجد غرفة الحلي والمصوغات القديمة والأسلحة والملابس.

وفي الدور العلوي من المتحف قسم تاريخ القواسم، ويحوي نموذجا لسفينة (البغلة) وهي من السفن الرئيسية لأسطول القواسم، ونموذجا آخر لسفينة (ليفربول) البريطانية التي هاجمت رأس الخيمة ورست على شواطئها عام 1830 وكانت تحمل 50 مدفعا.

وفي المتحف ايضا جناح خاص بالآلات التي استخدمت في الزراعة سواء في المناطق السهلية أم الجبالية، وكذلك نماذج لأنواع البيوت القديمة الشتوية والصيفية، إضافة الى أدوات الغوص وصيد اللؤلؤ.

وهكذا تتجمع العلامات المضيئة في تاريخ انسان الامارات، لتؤكد الحضور الفاعل في تاريخ البشرية والاضافات المتميزة في مسيرة الحياة. ومن أغرب المعروضات في المتحف تلك المتحجرات التي يعود تاريخها الى 225 مليون سنة، وهي أصداف بحرية عثر عليها في بر وسواحل الإمارات، وفي وادي حجيل في رأس الخيمة عثر على اصداف متحجرة داخل حصن تعود الى 190 مليون سنة.

ومن أبرز ملامح الحياة القديمة في هذه المنطقة ازدهار مهنة الفخار، حيث تتم صناعة اشكال متعددة منه لتسد حاجة الناس للأواني المنزلية المختلفة. وفي وسط متحف رأس الخيمة يقف مجسم لفرن كبير استخدم في صناعة الفخار مثل دلال القهوة والفناجين.

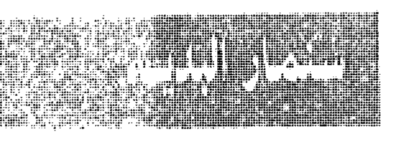
ويؤكد الآثاريون والمهتمون في هذا المجال على ان هناك العديد من الآثار يمكن التوصل اليها في هذه المنطقة، لما مرت به من احداث وتعاقبت عليها عصور شهدت الكثير من الفعل البشري على يد الانسان العربي الخليجي.

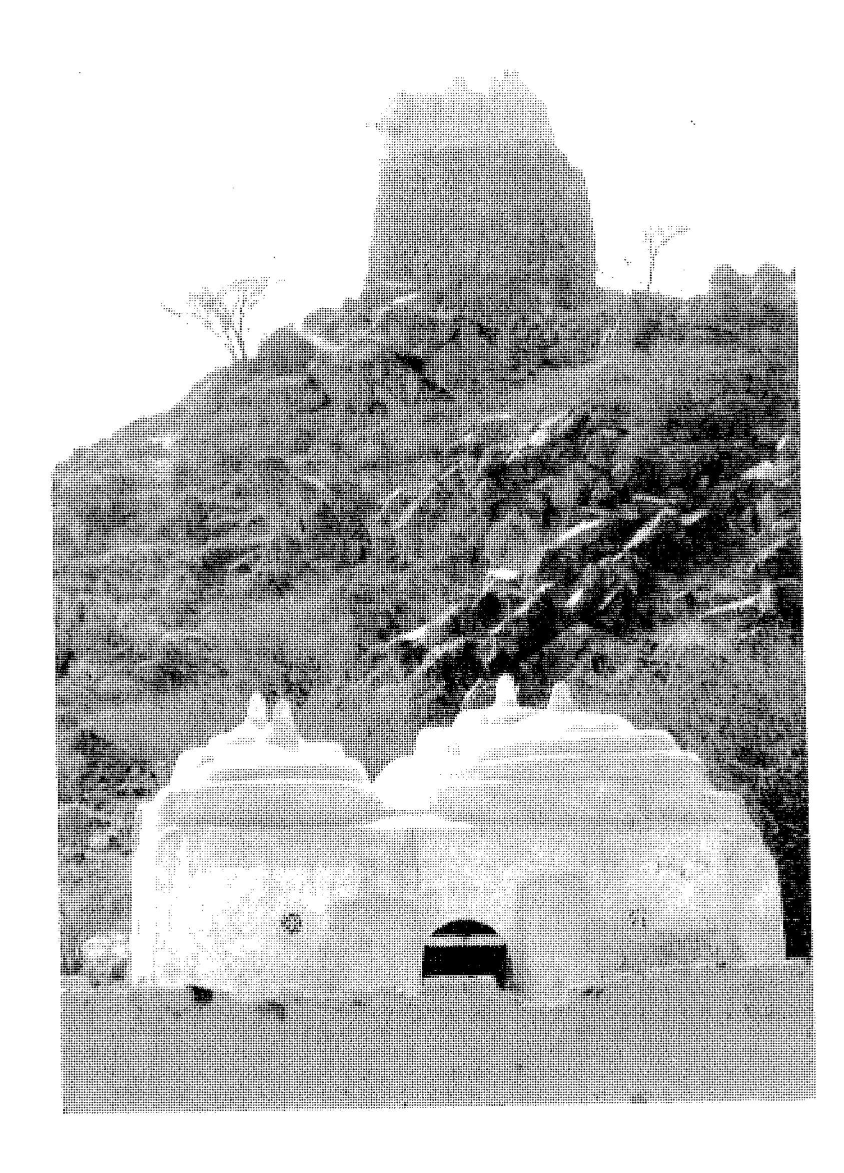
وهكذا تقوم رأس الخيمة من الماضي، وتنفض الغبار عن تاريخها المرتبط ارتباطا عضويا مع تاريخ ساحل الامارات وأهلها، لتقف الاجيال أمام صرح من صروح الحياة الجديدة في دولة الامارات.

وقد حرصت ادارة المتحف على جمع عشرات اللوحات والرسائل القديمة التي تعكس مراحل دفاع أهل الإمارات عن

وجودهم وأرضهم ضد الهجمات التي تعرضوا لها على مدى مئات السنين، وهذه اللوحات قام برسمها فنانون عالميون من خلال اطلاعهم على مجريات الأحداث التاريخية في هذه المنطقة.

وأبرز ما تتميز به هذه الرسوم متابعتها الدقيقة لاشتباك الاساطيل في البحر، والأسلحة المستخدمة في تلك المعارك وبعض المناظر التي تترجم عمليات الغزو الاجنبي التي تعرضت لها رأس الخيمة من قبل البرتغاليين والهولنديين والانجليز في القرون الماضية. وهناك أيضا الترجمات التي اخذت عن كتب ومراجع اجنبية تعرضت لتاريخ المنطقة بالعديد من اللقطات التوثيقية، والتي تحكي بدقة عن أسطول القواسم ووقوفه في وجه الغزاة.■





سنمار البدية

في الـفـجيرة قـرية صـغيرة اسـمـهـا البـدية، في نهاية سـفح احـد مـرتفـعـاتها مسجد غريب، يقول الناس انه موجود هكذا، منذ 400 عام جاء شخص غريب الى المنطقة، بناه واختفى..

مـســجد صـغير يقع في الطريق بين مدينتين. هل في ذلك ما يثير الكتابة؟

في حال مسجد البدية، نعم. البناء الغريب القائم على سفح جبل يـطـل عـلى خـليج عمان، يثير الكثير من الغـرابة تبـدأ من الشكل المخـتلف عن مـسـاجـد الامـارات، وتنتهي بموقعه الجليل المحاط بالأبراج القديمة.

بالقـرب من المسجد جلس جمع من كبار السن يتفيؤون ظلال جـدار منخـفض وشـجيرات مـتناثرة، كأحاديثهم التي من السهل قطعـهـا لمجرد إلقاء التحية.. هل يعرف احد سر هذا المسجد؟ كان السـؤال لغـزا لم يصل سريعـا الى الأذهان، صاح أحدهم «ياحاج حمدان قل لهم شيئا، حاول أن تتذكر».

توكأ حمدان أحمد عبيد الزيودي على عصاه وهو في حال جلوس «هذا المسجد عمره أربعمائة عام، جاء ذات يوم رجل غريب لم تعرفه المنطقة، وبناه في هذه المنطقة «البدية»، ثم ذهب الى منطقة «رؤوس الجبال»، وبنى مسجدا آخر، ثم رحل الى منطقة «الميزان» في عمان وبنى مسجدا ثالثا.. هكذا من دون ألواح أو طابوق او حديد أو أية مواد بناء معروفة. هذا ما اذكره من احاديث اهل البدية الذين رحلوا».

وغاب حمدان في شؤون سنيّه السبعين، منشغلا بحوار داخلي لم نسمع منه غير صوت السعال. لكن أين ذهب ذلك الغريب؟ «سمعت أنه قتل في عمان بتهمة السحر، فلا أحد يستطيع أن يقيم مثل هذا البناء، وحده ومن دون أية مساعدة، إلا إذا كان ساحرا». صاح أحدهم من الجالسين محتجا على هذه المعلومة «.. بل مات في رأس الخيمة مسجونا»، كيف؟

«في ذلك الوقت قالوا ان مثل هذا البناء لم يكن ليتم إلا في حالات خارقة، فمن بين الطين وسعف النخيل يخرج هذا الغريب بهندسة عجيبة، هذا أمر عجيب».. قاطعه آخر، واشتبك الموقف حتى لتكاد علامة الاستفهام تتسع بحجم البحر الذي كان يقذف بأمواجه على الساحل، بينما صيادو الأسماك يسحبون مراكبهم من رحلة ذلك اليوم ليبدأ المزاد على الطريق العام.

هل كان ذلك الغريب هو «سنمار البدية»، على ايقاع «سنمار» المهندس الذي بنى حصن النعمان بن المنذر في الحيرة وكافأه الملك برميه من أعلى الحصن لكي لا يبني مثيلا له؟

يقول الباحث الآثاري ناصر حسين العبودي ان مثل هذ الروايات ليست دقيقة الى حد الاعتماد عليها في عملية تأريخ للمسجد.. لكنه يؤكد في كتابه «مسجد البدية - دراسة اركيولوجية تاريخية» الصادر عن كلية الآداب في جامعة الإمارات، ان هذا المسجد يشكل حالاً تدعو الى الكثير من الأسئلة في الموقع والشكل وتاريخ البناء والظروف الاجتماعية والثقافية في فترة بنائه.

أربع قباب بالتواءات منخفضة، وبوابة لا يمر منها انسان من دون انحناء، وعلى بعد أمتار من المسجد بئر للوضوء وتزويد القوافل بالماء، بينما مازال ذلك المبنى على حاله لم تؤثر فيه أربعة قرون من الزمن.. جدرانه، قبابه، محرابه، وعلى الرغم من ذلك يكاد لا يرى من قبل المارين على الطريق العام، الذين يسرعون في اتجاه حداثتهم على السواحل وفي المدن، حيث يقع مسجد البدية بين مدينتي خورفكان ودبا، وقرب قرية البدية التابعة لامارة الفجيرة، واللافت ان الكثيرين ممن زاروا تلك المناطق فاتهم التوقف عند مسجد البدية، حيث الطريق السريع الذي لا يسمح بوضوح مثل هذه العلامات، ثم لانسجام المسجد مع المرتفعات الجبلية في تكوين واحد لا ينفصل عنه المسجد، إضافة الى الانخفاض المبالغ فيه والذي يكاد يصل الى مساحة نصف غرفة في الظروف الاعتيادية.

درجتان مهدمتان ثم ساحة أمامية بأمتار عدة مربعة، تطل عليها بوابة أشبه بمدخل قبر ولي، وتبدأ الظلمة التي تبددها آثار شموع محترقة على رفوف ملساء، وقليل من الضوء النهاري.. ولا

أحد.

مشهد يعيد الى الأذهان حياة ما قبل الكهرباء والصناعة والنفط، ويفصل بين زمنين لا يتصلان بشيء، ففي الداخل رائحة دهليز تقادم حتى عاد بلا رائحة، وفي الخارج الفجيرة الحديثة؛ مبانيها وسواحلها وطرقها الحديثة ومجالاتها السياحية الواسعة.. إلا أن منطقة البدية (الجبال والمسجد والمباني المحيطة والأبراج القديمة) تعد منطقة استقرار ومستوطنا مهما في الماضي نتيجة التنوع في المباني التاريخية القديمة التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد (كما يقول ناصر حسين العبودي). وتذكر مدينة البدية ضمن مدن ومواقع على ساحل عمان من سلطنة عمان الى ساحل الامارات العربية المتحدة، وفيها حصون يصل عددها الى احد عشر حصنا في الفترة البرتغالية، ومنها حصون البدية التي وردت في الكتابات البرتغالية باسم «لبيديا»، وهذه الحصون بناها العمانيون واحتلها البرتغاليون. وخلف المسجد قلعتان وبرجان فوق الجبل، ويتخذ البرج شكلا اسطوانيا مدورا يؤدي وظيفة الاطلاع وحماية السكان من الهجمات الخارجية، ويسمى احد البرجين برج «مسعود» أو «سعود».

رائحة القرية لا تزال تنشر اخضرها على المنطقة، فالمزارع في كل مكان، والنخيل تحديدا يغطي مساحة واسعة من المنطقة التي تعتبر خارجية بالقياس الى مركز المدن المحيطة سواء في الفجيرة أم خورفكان. وقد يشاهد الزائر بين كل ساعة وأخرى حمولة زراعية تتوقف عند المسجد ليزدحم الرصيف بعد قليل بحركة البيع السريع للخضار والفاكهة، ثم ينصرف البعض مندهشا امام هذا

المبنى الذي يكتشفه عن طريق المصادفة، وتبدأ الصور التذكارية.

من بين هؤلاء يمر أحد المعمرين في طريقه الى المسجد، مطرق الرأس، عصاه تخط في الأرض آثار التعب، لا يتطلع الى المشهد لكي لا ينفصل عن عالمه. هل تعرف تاريخ هذا المسجد؟ «السؤال نفسه وجهته الى والدي وانا في العاشرة من عمري، فقال انه كان موجودا على زمن أجداده». وبدأ يصلي. ويبدو ان تخطيط البناء واتجاه جداره مع وجود المحراب نحو القبلة، دليل واضح يؤكد انه مسجد للمسلمين، مما يدحض بعض الافكار التي تذهب الى أن البرتغاليين أنشؤوا مباني عدة ربما يكون هذا المبنى أحدها، وأنهم بنوا الكثير من القلاع والحصون والكنائس على طول الساحل الشرقي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وكان من أوائل من ذكر المسجد المؤلف الانجليزي ولكنسون في كتابه عن دولة الامارات، يقول: «يقف في البدية مزار يشبه من حيث التصميم والشكل المزارات المعروفة في اليمن». يذكر أيضا انه سأل الشيخ محمد (لم يذكر من الشيخ محمد) فقال «ان سكان البدية يرجعون في نسبهم الى مالك بن فهم من مأرب، وقد بنوا المسجد شكرا لله بعد عثورهم على لؤلؤة ضخمة اثناء صيد السمك».

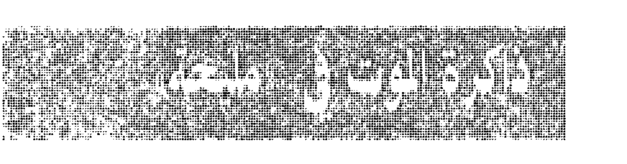
وإذا كانت منطقة البدية حافلة بالحصون والأبراج، فإن المسجد هو العلامة الوحيدة المتبقية من تلك المعالم حيث لم يبق سوى مشهد المرتفعات الجبلية السوداء المطلة على البحر، وبينها الطريق الذي يشق أحيانا تلك المرتفعات فيبدو المشهد مفعماً بالأجواء السياحية ومرافقها الحديثة.

يقـول حمدان أحمد الزيودي «كنا في هذه المنطقـة منقطعين عن العـالم، بيـوت من سـعف النخـيل وخـيـام، بين الزراعـة وصيد الاسماك والغـوص بحـثـا عن اللؤلؤ، نتجمع عند مسجد البدية في أوقات الصلاة، ولم نكن نسأل عمن بناه او في أية فترة».

ولا يسـتطيع احـد مـتـابعة واستقراء تاريخ مسجد البدية من دون الدراسـة التي بادر بها (للمرة الاولى في تاريخ البدية) ناصر حـسين العبودي الذي يلخص بحثه بأن هذا المسجد يشبه مسـجدا آخـر في قـرية «بدية» في عمان ويسمى مسجد «الكفي» وهو اقرب الى الاسـتطالة منه الى التربيع، وفيه 40 عمودا، ويذكر أن عمره لا يـزيد على 400 سنة، وان البنّـاء هو الشـخص نفسـه الذي بنى المسـجـد في بدية عمان وبدية الفـجيرة، علما أن بدية عمان لا تقع عـلى الـسـاحـل بـل في الـداخـل. والـلافت ان البرتغـاليين الذين اسـتـخـدمـوا حصن «لبيديا» (البدية) لم يذكروا هذا البناء لا من حيث وجوده قبلهم أو ازالتهم له كونه يشكل نقطة أمنية ليست في مصلحتهم لموقعه قرب الحصن.

ومن الناحـيـة الفنيـة لبناء المسـجـد فقد اعتمد البناء على الفن السلجـوقي والعـثماني. ومما يعـرف عن السـلاجـقة أن دولتهم تكونت من أحـد العناصر التركـية أسسـها (ظفر بك) العام 1055 واسـتـمـرت حتى قضى عليها المغول في بداية القرن الثالث عشر. وبعـد قـرون ظهر الأتراك العثمانيون، وكان السـلاجقة معاصرين للدولة البـويهيـة والسامانية، وقد اكتشف لـهم الكثير من العملات النقدية في مناطق مختلفة من الإمارات ومن أهمها رأس الخيمة.

ويبـقى بين سنمار البـدية في الفجيرة، وسنمار الحيرة في المناذرة، سر البناء، ذلك الرمـز الذي لا يزال يثير عـلامـات الاسـتـفهام في وجـوه الأجـيـال وهـي تتـابع، أوتحـاول مـعـرفة الموقع والشكل وظروف المرحلة وأجـواءها الاجتماعية والثقافية.. بينما الدارسـون في حـال اجـتـهـاد مـسـتـمرة، يمسكون بخيوط استنتاجاتهم ثم يشـدون أطرافـهـا للتوصل الى نتيجة علمية، لكن الناس يفضلون رواياتهم التي يتناقلونها في مـا يشبه الاشاعة، لكأنها تبقى ضمير الذاكـرة الشـعـبـيـة التي تحتفظ بنبضـها الأساسي الصحيح، على الرغم مما يلفها من إضـافات.■


ذاكرة الموت في ملحمة



ذاكرة الموت في «مليحة»

في سكون آت من هاوية الوقت، ترقد العظام الرميم، لكان ذاكرة التاريخ مرت من هنا فايقظت ذلك النائم، لينام ثانية بين يدي بعثات التنقيب البلجيكية والدانماركية والفرنسية والامريكية والعربية. قبور احتضنت الموتى، لكنها قاومت الزمن، وها هي تشهد من جديد. إذن، لابد من توسيع فتحاتها الصغيرة للوصول إلى جمجمة، جرة، إناء، مدية، عملة، ويبدأ اللصق والترميم والتاريخ.

التاريخ؟ قبور تعود الى ستة آلاف سنة، نثرها أهلها في عشرات المناطق التي تشكل اليوم دولة الامارات العربية المتحدة: جبل حفيت، جزيرة أم النار، جرف بنت سعود، مصفوت، هيلي، الدوّر، الدربحانة، المويهات، المدام، الذيد، البحايص، مليحة.. القصيص، حتا.

في الطريق الى مليحة «امارة الشارقة»، كان الوقت صباحا، صحراء تمتد على جانبي الاسفلت الحديث. لكن ذلك الصباح سرعان ما يتحول الى ثقب يوصل الى عمق الفصول التي تخلط

الأشـيـاء فـتحيلها الى عناصر اخرى، بينما بعثة التنقيب الفرنسية تضع تواريخهـا على القطع المتربة: هذه تعود الى الألف الثاني قبل المـيلاد، وتـلـك تـعـود الى الألـف الأول، وهـذه تعـود إلى الفترة الهلنسـتـيـة في مساحة بضعة أمتار مربعة، وهذه القبور الدائرية والمستطيلة والمربعة، هل هي لجنود سبقوا غيرهم الى التضحية، أو لفـلاحين انهارت عليـهم ضـفـتا الوادي، أو لأناس رحالة أدركهم الطاعون فاحتضنوا بعضهم بعضاً وماتوا جماعياً؟

في ذلـك السكون المرعب لايبـدو الجـواب سـهـلا، وهـي عـادة التاريخ دائما، فهو لا يفصح عن مكنوناته بسهولة.

عند الوقـوف بالقـرب من هذه المدافن، تبـدو الفكرة مضحكة، لكن أليـست الكاميرا المتـجهة لالتقاط صور الحفرة، منسجمة هي الأخـرى مع فكرة العـودة الى الحياة؟ أليست الكاميرا أداة لايقاف اللحظة ومنعها من الرحيل في هوة الوقت؟ انها الفكرة ذاتها ولكن بأشكال مختلفـة: في هذه الحفرة أدوات منزلية وبعض ما يحتاجه الميت، وبيـدي آلة حديثة نسميها كاميرا، لكن وحده حجر الصوان يسقط المقارنة. كل شيء تحول الى تراب إلا مادة بناء المدافن، وهـي حـجـر الصـوان الذي يبدو انه نقل من بعيد لبناء المدفن، ذلك ما يـؤكـده علماء الآثار الذين عـثـروا على عشرات المواقع في المناطق السـاحليـة والجـبلية في الامارات وأبرزها المناطق الزراعية، حيث فـاجأت بعـثـة الآثار الفـرنسـيـة احد المواطنين ينقب مزرعته في المليـحة، وبعد فترة أصبحت تلك المزرعة مقبرة اثرية مسيجة يرقد فيها عشرات الموتى داخل قبور مبنية باحكام من حجر الصوان.

في الامارات تتميز كل منطقة بخصوصية تاريخية، ذلك ما أكدته اعمال المسح الأثري، التي تعود مكتشفاتها الى القرن الثاني قبل الميلاد، وهي الفترة التي تمثل سلسلة حضارية في الامارات بقيت تطبع المنطقة حضاريا حتى الآن. وعلى الرغم من العثور على عشرات المواقع والمدافن والموجودات الأثرية، فان العلماء لم يقفوا عند سلسلة حضارية، متصلة، واضحة المعالم، باستثناء علامات تدل على آثار من العصر الحجري، بين الألف الرابع والخامس قبل الميلاد في الشارقة، والألف الثالث في أم النار وفي عجمان وأم القيوين. أما فترة الألف الأول قبل الميلاد، فهي موجودة في كل مناطق الإمارات ثم تأتي الفترة العربية الهلنستية، وفي نهايتها فترة «الدور» في أم القيوين، وهو موقع مهم عثر فيه على العديد من الآثار، أما بدايات الفترة الاسلامية فهي قليلة الوضوح وغامضة وغير مدروسة حتى الآن.

كيف تم الوصول الى البدايات، تلك النقطة التي بدأت من الموت وصولا الى الحياة؟

لقد مثلت المدافن نقطة البداية لتلمس نبض المنطقة التاريخي، وكانت البعثة الدانماركية منشغلة بمعرفة سر المدافن في البحرين، حيث يقال انها عثرت على مائة ألف قبر في العام 1955. وكان لابد من معرفة أبعاد الفترات التاريخية جغرافيا وحضاريا، خاصة فيما يتعلق بوحدة المنطقة الخليجية. وبدأت فكرة الحفريات تشق طريقها، لكن حاكم أبوظبي في ذلك الوقت سارع في طلب البعثة الدانماركية برئاسة عالم الآثار الشهير جيفري بيبي للتنقيب عن الآثار في أبوظبي. وتمخض العمل الذي بدأ في العام 1958 عن

اكتشاف المدافن في جزيرة أم النار التي تمتد الى فترة الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت تلك العمليات فاتحة لمعرفة الكثير عن ماضي الإمارات.

مناطق المقابر الأثرية هي الأكثر عددا من بين الاكتشافات الأثرية في المنطقة، وتقدر بـ 50 موقع دفن في الإمارات. وهي مجموعة قبور جماعية أو فردية، كبيرة وصغيرة، أقدمها في أم النار وجبل حفيت والهيلي. وإذا كانت الآثار الموجودة في ما يعرف اليوم باليمن وسوريا واليونان ومناطق شرق السعودية، تدل على اصرار الإنسان على الحياة ورفضه فكرة الموت الابدي، فإن تلك الفكرة لم تغب عن الانسان في الإمارات. ويبدو ان من الممكن وصف المشهد الجنائزي كالآتي: توديع مؤقت للنائم، ووضع يديه ورجليه كما الطفل في رحم الأم، والنوم على احد جنبيه، ثم إلصاق الاواني والأدوات الخاصة به. وهو حسب اعتقاد ذلك الزمان سيقوم بعد فترة لكي يواصل نشاطه. لكن لم يتوصل احد حتى الآن الى تفسير بعض التفاصيل: من الذي يضع هذه النذور في القبر، هل هو الميت نفسه أثناء حياته؟ ومتى توضع، أثناء دفنه من قبل أهله، ام بعد ذلك بفترة؟

في العام 1972 اختارت بعثة عراقية احد القبور الكبيرة في مليحة وحصلت على بعض الأدوات المنزلية الى جانب الميت، وكان القبر يشير الى أهمية الشخص الميت من بين القبور الاخرى، بمعنى انه ربما يكون مهما كرئيس. لكن الثابت علميا هو ان منطقة «مليحة» تنقسم الى ثلاث مراحل، يفصل الواحدة منها عن الأخرى مائة عام. ومدافن تلك المراحل تختلف فيما بينها سواء في

الشكل الهندسي، أم المعتقد من حيث طريقة الدفن وسعة القبر والأشكال المدفونة مع الميت.

وبينما يغرس الانسان بصره في اعماق الحفرة وهي تموج بفضاء العصور، يتبادر الى الذهن سؤال: لماذا تكون بعض القبور محتفظة بالعظام، وبعضها تحول الى تراب بالكامل؟ يقول ناصر حسين العبودي: «ثبت علميا» أن بعض المناطق تسمح للجثة بمقاومة التحلل الكامل، بينما مناطق اخرى تحول الجثة فورا الى عناصر اخرى، ونحن في صدد دراسة هذه الظاهرة عندما تكتمل عمليات المسح، وعندما نستطيع الاجابة عن عدد من الأسئلة: هل هذه القبور الخالية سرقت او ان الجثث تحللت؟ وهل كان هناك اعتقاد بضرورة الاستبدال، أي ان يستخرج الميت بعد فترة ليحل محله ميت جديد مما يجعل القبر الواحد عرضة للهدم والبناء غير مرة، بينما لا أحد يمس الادوات المتراكمة فيه؟ ان مثل هذه الاسئلة في حاجة الى معرفة الضفة الأخرى، معرفة آثار الحياة هنا لكي تتم دراسة المعتقدات. وطرق الدفن كما هي الحال في الألواح الطينية، ومعالم البناء والتطور الهندسي في الممرات والمعابد، سواء في بلاد ما بين النهرين ام في بلاد الاغريق ام في وادي النيل. وفي ما عدا ذلك تبدو الحلقات بعيدة عن بعضها.

مثلا: ترى البعثة الفرنسية في جانب من تحليلاتها ان شكل ومكان المدافن يعكسان وجود حال من الخوف وعدم الاستقرار، كيف؟ في بعض الفترات تكون المدافن قرب مناطق السكن، وفي بعضها الآخر في سفوح الجبال، أو فوق قمم الجبال، او بعيدة جدا عن منطقة السكن (2كلم)، ويعود ذلك الى الخوف والمعتقد.

فبالنظر الى انتشار الامراض، أو مواسم البرد، أو الحروب او فترات الرحيل الشتوي او الصيفي، كانت تسود حال من الخوف والحذر من وقوع احداث كثيرة. ولذا تشير بعض الدراسات الأولية الى ان هنا اعتقادا بأن المقابر كانت تحفر ويؤخذ الميت مع الناس الذين يرحلون الى مكان آخر، أملا في عودته الى الحياة اثناء الطريق أو في المنطقة الجديدة التي سوف تكون افضل لهذا النائم. اما القبور التي تبقى كما هي فانها ستكون عرضة للسرقات او الاستخدام.

لاشيء يسلم، سواء كان فوق الأرض أم تحتها، ولا الزمن قادر في تقادمه على صناعة غطائه الكامل حول كائنه، كما لم يستطع الفناء ان يأخذ المادة الى عدمه الأبدي. لابد وان تعود على شكل نفط او سماد او تراب أو كرة رملية، يمسكها ابراهيم محمد صالح من متحف عجمان متأملا: هكذا وجدنا هذه الجمجمة، كرة من التراب فيها بعض العظام، ولدينا عشرات الجماجم في صناديق ورقية نحتفظ بها الى حين ترتيب موقعها في المتحف. لقد استطاعت البعثات وعمليات التنقيب في موقع «المويهات» في عجمان ان تعثر على هذه الهياكل في مدافن دائرية الشكل تماما، توحي بأن كل مدفن خاص بعائلة معينة. والى جانب كل ميت عدد من الأواني والعملات والأسلحة البدائية. انها في انتظار الدارسين لوضع حد لهذا المجهول الذي يتكرر في مناطق الإمارات.

وما يثير التساؤل، ليس فقط الشكل أو الفترة، وانما لغز المكان في ما يتصل بالقبر نفسه: قبور تحت الأرض بالكامل اي لا وجود لأي اثر خارجي، وقبور اخرى فوق الارض، اي لا وجود لاي

آثار حفر، إذ يوضع الميت على الأرض ويقام البناء فوقه، بينما النوع الثالث من القبور هو نصف في الأرض ونصف فوقها. وأقدم المدافن هي تلك التي فوق الأرض في جزيرة ام النار، بينما في مدافن «قدفع» في الفجيرة تبدو القبور تحت الأرض كليا. هذه الاختلافات مهمة وتستوجب الدراسة، وهذا ما يؤكد عليه مشرفو المتاحف في الإمارات (6 متاحف في رأس الخيمة ودبي والعين وعجمان والفجيرة، والشارقة).

وتبدو المدافن الفردية طبيعية، لكن المثير هو المدافن الجماعية. كيف نشأت هذه المدافن وما الذي يدعو الى حفر مكان ضيق وزج 17 جثة فيه (هذا القبر موجود في أم النار)؟ عمر هذه المدافن اكثر من ثلاثة آلاف سنة. هل كان ثمة اعتقاد بالدفن الجماعي، كأن يموت رب الأسرة فيدفن معه كل افراد اسرته أحياء؟ او أن الجثث أضيفت تباعا في فترات متباعدة؟ اسئلة برسم الجواب، الجدير ذكره هنا انه في مدافن القصيص في دبي عثر على قبر يبدو انه استخدم غير مرة؛ إذ يعتقد انه كانت تستخرج الجثة القديمة منه وتوضع مكانها جثة جديدة، وترمى الأولى خارج القبر دون عناية، ما لفت انتباه البعثات الى هذا الموقع واختلافه عن المواقع الاخرى، ويذكر أن الدراسات على موقع القصيص دلت على أنه يعود الى الألف الثاني قبل الميلاد.

الإمارات واحدة من نقاط المثلث المعروف باسم «الثمولية»، وهو مصطلح يعني نصف دائرة بين الإمارات وعمان والبحرين، والمدافن هناك انتهت الى معلومات وحقائق علمية واضحة؛ فالبحرين مثلا كانت مكانا مقدسا ومدفنا يؤمه الناس حتى من

وادي الرافدين، كما هي اليوم معتقدات بعض المسلمين، حيث يدفنون في مراكز معروفة سواء في مكة أم في المدينة أم في النجف. ولعل السبب الرئيسي الذي أخّر معرفة سر هذه المدافن هو ان المنطقة كانت همزة وصل بين حضارات اكثر استقرارا. ذلك ما اكدته الوثائق والسجلات المكتوبة لبلاد الرافدين، فقد كانت منطقة الإمارات تربط بين العراق وبلاد السند وماجان وملوخا ودلمون حتى بلاد وادي النيل، وهذا ما قد يفسر وجود حجر الصوان في بناء المدافن، بمعنى ان الفخاريات صناعة اولية جاءت بعدها مرحلة من التطور، ولذا يعود تاريخ هذه المدافن الى عصر استعمال حجر الصوان. ولم يعثر على كسر فخارية قريبة من المدافن كما تم ذلك في سلطنة عمان، بينما يختلف الامر كثيرا في مدافن رأس الخيمة، التي عثر فيها على سهام برونزية، وأبرزها مدافن شمل، ضاية، وادي القور، وفشغا. ولم تخل مساحة ساحل الإمارات العربية المتحدة من هذه المدافن ذات التدريج العجيب في الشكل والمعتقد وطريقة الدفن.

. يقول ريمي بوشارلات مدير البعثة الأثرية الفرنسية، ان موقع مليحة يعد من أهم المواقع الاثرية في المنطقة، حيث عثر فيه على مخلفات حضارية استمرت لأربعة أو خمسة قرون، منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ثم اعيد السكن فيه ثانية خلال العصور الإسلامية المبكرة، وهكذا صار البناء فوق البناء، في تشابك مذهل. وحده العلم الحديث كفيل بفك رموزه.

وفي الطريق الى مليحة، كان الاسفلت يفصل جدران سكن قديم، مرت عليها عجلات الرصف الحديثة، بينما العمال يدقون

بفؤوسهم الصغيرة صخرة المواقد والغرف في موقع جديد على جانبي الشارع الرئيسي. تيقن وانت تنظر اليه ان الفكرة واحدة: هنا مدافن، وهنا اعمدة تقترب من الشمس، وهنا أهرامات شاهقة بصخورها العجيبة، أو مسلة وبوابات وجنائن معلقة. ان الانسان مُصرّ على ان يرمي الأرض بيده، فتذهب اليد ويبقى اثر الكف عالقا على وجه الأرض.■


نبط بلون الصخور

نبط بلون الصخور

اسم المكان ليس دائماً مفتوحاً امام معرفة المعنى.. انه لغز آخر يضفي على المكان جاذبية خاصة.. مثلما يضفي السؤال عن معنى اسم «حتا» على وجوه أهلها حيرةً ودهشة..

«حتا» مدينة في امارة دبي، هي مكان آخر في رحلة العزف على خشب السدر، لكن السدر هذه المرة يتحول الى صخور خضراء ومساحات عامرة بصوت الماء وهو ينحدر عبر سدودها الصغيرة الدافئة بلون مياه الامطار.. بينما تبدو في أطراف حتا البعيدة قلاع وابراج نصف قائمة، وجبال ووديان وبيوت حديثة محاطة باشجار الفاكهة والطرق الصغيرة المتفرعة الى مرتفعات تسكن فوقها تلك البيوت.

كان علي خليفة سرور يشير الى القلعة التي بناها الوالي خليفة بن علي قبل 200 سنة وهي اليوم تحتفظ بنصفها القائم وسط برجين متقابلين لحماية المنطقة، لكن جدرانا عالية تضرب على القلعة وما يحيط بها ظلالاً كثيفة، لذلك فلا نستطيع ان نطيل الحديث عن تلك القمم ونحن نشاهدها من خلال نافذة السيارة

ولم يكن امامنا سوى الترجل ومواجهة تلك الجبال: ذلك الجبل الاعلى واسمه «ام نسور» ويرتفع 7 آلاف قدم عن سطح الارض، وفي الطرف الآخر قمة جبل اقل ارتفاعا نستطيع الوقوف عليها عبر هذا الطريق الذي امر بفتحه الشيخ راشد بن سعيد آل المكتوم.

ومن قمة الجبل نرى ذلك الوادي الاخضر، نحن اذن في «حتا» التي اذا كنت مستعدا لقطع مسافة 110 كيلومترات جنوب شرقي مدينة دبي فانك ستجد نفسك وسط احتفال اخضر مفعم بموسيقى النخيل واشجار الليمون والتفاح ورذاذ السدود المتطاير بفعل هبات النسيم الربيعية دائما.

في اعلى درجة حرارة اذا جلست تحت هذه الاشجار فانك ستستغني عن مكيف الهواء، ويبتسم علي خليفة سرور مشيرا الى البيوت الحديثة والشاليهات كدليل على صحة كلامه فيقول: «هذه البيوت الفخمة يحرص اصحابها على قضاء اجازاتهم هنا، فهم يأتون من المدن، بضجيجها وسخونتها وروتينها ليتزودوا من جمال الطبيعة وهدوئها. والطريف ان كل بيت من هذه البيوت يفتح صاحبه امامه مساحة واسعة تكون مشروع حديقة عامرة بأشجار الفواكه والنخيل فتزداد حتا خضرة وجمالا».

علي خليفة شاب يزهو بمشاركاته في سباق الهجن، وهو لا يتردد عن قهر سيارته في أقسى الطرق بحثاً عن أقصرها.. اذن، لابد من ذاكرة اخرى أكثر حضوراً وتجربة، ولابد من ذلك المرتفع الذي انشق عن اتجاه الجبل ليستقر فيه صوت النار حول دلال

القهوة العربية واحاديث حمد بن محمد سيف وسعيد محمد بن غريب وسيف بن محمد بن سيف.. هؤلاء تولوا تباعاً ولاية حتا أيام كانت الامور تدار بواسطة الوالي قبل المؤسسات الحكومية الحديثة على مستوى البلدية والشرطة والمحاكم وغيرها..

- السلام عليكم..

- وبدأت القهوة تدور بصمت، الاّ بعض كلمات متباعدة تؤكد حسن الضيافة..

وقبل الحديث عن أي شيء أو حول اي سؤال، أو معرفة من هذا القادم الغريب، بدأ سيف بن محمد يتمتم بكلمات ربما هي تلخيص لما يعيشه اليوم من هموم اجتماعية.. وقد بدا وجهه عجيباً وهو يتحدث، بدا جاداً وهائماً في البحث عن سبب او تبرير لغربته وهو في وطنه، ورغم حالة الانسجام والطمأنينة التي تحدث فيها، الا ان نبرة الاحتجاج كانت واضحة: «اننا نعيش علاقات اجتماعية طيبة بين القبائل، ولاتزال عاداتنا في الافراح والاحزان مثلما كانت في السابق، فلا يمكن ان يتزوج احدنا في الفندق كما يحصل عند اهل المدن»..

ويرى سيف بن محمد «ان القطيعة بين الاهل والاصدقاء عيب، لذلك فاننا نحرص على التزاور واللقاءات في المجالس، وحتى عندما كانت الرحلة الى دبي تستغرق عشرة ايام ذهابا وايابا بواسطة الجمال والحمير فاننا كنا نتواصل دون انقطاع».

وسيف بن محمد هو الوالي الاخير من بين سبعة ولاة كان يتم تعيينهم من قبل حكومة دبي ويقومون بحل مشاكل الناس وادارة

المنطقة ادارة كاملة، والولاة هم: خليفة بن علي، حمدان بن محمد، خلفان بن محمد، علي بن سيف، خليفة بن محمد، محمد بن عبد الله الظاهري، سالم بن خمسان، حمد بن غريب، وحمدان بن حمد، وسيف بن محمد وبعض هؤلاء سكنوا بيت الحاكم المتمثل بالقلعة الكبيرة التي كان ينزل فيها الشيخ سعيد آل مكتوم عندما يأتي الى حتا.

ويلتفت علي خليفة سرور معربا عن استعداده لمصاحبتنا الى القلعة الكبيرة لكنه هذه المرة سلك بسيارته طريقا مملوءة بالحصى كادت تصيّب السيارة بالعطل لولا تأكيده على ان هذه السيارة قوية جدا: «فقد حصلت عليها من مشاركتي في أحد سباقات الهجن العربية الاصيلة».

وعند باب القلعة باءت محاولاتنا في فتحها بالفشل، الا ان الزمن فتح ابوابا عديدة من جوانبها بفعل الامطار والعوامل البيئية الاخرى، فكان التسلق اسهل من الدخول من الباب الرئيسي. في الداخل جدران مهترئة وابواب موصدة وغرف صغيرة وبعض نقوش على حافات الجدران والسطوح. انها رموز الحياة هنا، والاجابة الواضحة على اسئلة الحاضر عن الماضي، لكن تلك القلعة لم تكن واحدة. كانت قلعتين؛ واحدة من الحجر والطين، واخرى من اللحم والدم، فهذه شيخة بنت خميس امرأة طاعنة في السن تقف بالقرب من الجدار القديم وتحاول ان تعرف ماذا يجري هنا، ونسألها عن القلعة ولا بد انها تعرف.

تقول شيخة بنت خميس: «ان هذه القلعة بناها خليفة بن علي،

وهو الوالي الاول في هذه المنطقة، وكانت محاطة ببيوت عديدة لكنها الآن كما تراها، تلال من الحجر والطين وبعض جدران ستسقط بين حين وآخر».

وحين سألناها عن عمرها. لم تلتفت: «هذا السؤال لم افكر به من قبل» فهي لا تستطيع ان تربط سنواتها بحدث او عصر جفاف او وباء او حرب او ولادة، وهكذا هي خارج فلسفة العمر طالما هو ماض لامحال!

ومن الماضي الى الحاضر، تواصل حتا رحلتها لتستقر على مساحة خضراء تتوزع بين 8 احياء هي: حتا، المصلى، هراوة، سعير، سهيلة لميم والسالمي، الزهرة، جيما.

ويسكن منطقة حتا 4 آلاف نسمة في 430 منزلا وبين هذه المنازل 157 مزرعة تنتج معظم انواع الفاكهة والخضار وتتلقى المياه من عيون الماء العذبة التي تصب من بعض المرتفعات اضافة الى مياه الامطار التي اعطت للمنطقة عاملا اساسيا في تطوير الزراعة وذلك من خلال 10 سدود بينها سد حتا الكبير وسد سهيلة مما ادى الى المحافظة على زراعة النخيل حيث تزدحم حتا بمئات الآلاف من النخيل بتمورها المعروفة مثل النغال والخصاب والجبري والخنيزي.

ويقول علي سعيد احد مواطني حتا: «زراعة التبغ كانت الاولى في هذه المنطقة قبل ان يبدأ الاهتمام بالنخيل والفواكه والخضار، وكانت زراعة التبغ مصدرا اقتصاديا لابناء المنطقة الذين يستقبلون التجار من مناطق الخليج، اما اليوم فان عددا من

مـصانع المياه المعدنية، الطابوق، الخرسانة المسلحة، ينتشر في حتا مشيرا الى تحول اقتصـادي مهم في حياة المنطقة».

ومع هذا التحول الاقتصادي يلاحظ الزائر وجود عدد كبير من السـائحين وسط هدوء المنطقـة وجبـالها، وفي أحـد طرق حـتـا الرئيـسـيـة المحـاطة بالمرتفـعـات الصـخـرية ترك احـد الفنانين التشكيليين بصمات ريشته على كتلة صخرية مرتفعة عن الشارع، مكوناً تشكيلة لونية رائعة..

ـ ياأخ علي اين أنت؟ أراك تغني بصمت؟ هل تعرف هذا الفنان؟

كـان علي خليـفة مشغولاً باغنيته.. قال انها قصيدة نبطية.. ها ان التـشكيل ارتبط بمكانه وصـار التأمل لغة حية يمكن ان تفصـح ببساطة عن العلاقة بين الانسان والمكان..■

بن شمبر يتذكر مدرسته



بن شمبر يتذكر مدرسته

كانت نقطة البدء المنتظمة لنشر النور في العقول، وبهذه البداية الخصبة كتبت الفصول الاولى من قضية التحول الاجتماعي الذي تشهد ثماره الدولة الآن. المدارس القديمة في دبي علامات مضيئة بعضها غدرت به يد الزمان فبقيت آثاره، وبعضها الآخر صار ذكرى. وليس هناك من أثر سوى كلمات، بينما اصوات اولئك الصغار: الف لام، حاء ميم.. تعيد الى الاذهان مكاناً آخر من تلك الامكنة التي نبحث عنها فلا نجدها.. فقط اصداء تلك الحروف: الف لام.. حاء ميم..

قالها الشيخ وردها الصغار، ثم أعادها الشيخ وحفظها الصغار. ولو أنها تبدو اليوم رموزاً صعبة النطق، أو حروفاً ليس لها معنى، لكنها كانت عملية تهجي الحروف والآيات القرآنية في المدارس القديمة، حيث القرآن الكريم والصبية الذين يفترشون الأرض في دائرة يتقدمها شيخ بيده العصا التي هي لمن عصا...

صوت القراءة يصعد، وموسيقى الحروف تتعمدها حناجر الصغار كدليل على انتباههم وتفاعلهم مع الشيخ المعلم، والى جانب

كل واحد صحن متواضع فيه بعض الخبز والتمر وما تجود به حالة الأهل، وكل العيون تتجه صوب الصحون في انتظار موعد الاستراحة. تلك هي الكتاتيب أو المطاوعة، الشكل الأول للمدرسة في دبي حيث مجاميع الصبية في ساحات المساجد أو البيوت الطينية وهم يتعلمون درسا واحداً «القرآن الكريم».

ولم يكن سهلا تحديد زمن تلك المرحلة، فالتاريخ هناك لم يلق اهتماماً الا ما ندر، وخلفان بن شمبر لا يريد أن يتذكر السنة التي دخل فيها الى «المطاوعة» وهو الاسم الذي كان يطلق على المدارس الشعبية، ويقول: «لأننا كنا نعيش في زمن لاتاريخ فيه، وكل شيء نعرفه هو تلك الكتل من الطين والسعف، التي كنا نسميها مدرسة».

لكن الذي يستمع الى بن شمبر لابد وأنه يحدق في علامات أزمنة وحكايات يوحي بها وجه بحار قديم وتلميذ قديم وعاشق قديم «فهل يتذكر الانسان شيئاً بعد 73 سنة من العمر؟».

● وهل هذا هو عمرك؟

- أنا أصر على هذا العمر لكنهم يؤكدون لي أنني ابن 104 سنوات، من يدري ربما هم مصيبون في هذا التقدير، فأنا أتذكر الأحداث جيداً، خذ مثلا المدارس القديمة في دبي، هناك مرحلتان: الأولى بدأت مع الكتاتيب والمطاوعة لتعليم قراءة القرآن فقط، وفيها بدأ الصغار يذهبون الى «الشيخ ربيع» في مكان مسيج بالسعف والطين بالقرب من بيت بن دلموك.

وهناك أيضاً «بيت موزة» لتعليم القرآن، و «بيت فطيمة جباب»

في فريح الضغاية. ثم جاء الشيخ عبد الله النوبي لتنتهي مرحلة المطاوعة عند هذا الحد. فقد بنى محمد بن احمد بن دلموك مدرسة كبيرة استوعبت كل الطلاب الذين كانوا في الكتاتيب، وجاء الى هذه المدرسة ثلاثة شيوخ من الزبير هم أحمد ويوسف وعبد الله وبدأت معهم مرحلة تعليم القرآن والكتابة والحساب والخط العربي، وكنت أنا من الذين تعلموا فيها.

ويؤكد بن شمبر على ان هذه المدرسة «الأحمدية» فتحت الأبواب امام تطور التعليم في دبي «فقد جاء بعدها محمد علي زينل، وهو تاجر لؤلؤ من الحجاز وفتح مدرسة الفلاح في بر دبي بتشجيع من الشيوخ وتسهيلات بالنسبة للأرض التي حصل عليها والتي خصصت للدراسة في جزء منها، وفي جزء آخر للرياضة بادارة الشيخ عبد الرحمن حافظ».

وفي هذه الفترة كانت مدرسة السعادة في بيت سكني صغير للشيخ محمد عبد الله اليمني الذي نقلها بعد حين الى سكة الخيل «سوق الذهب حالياً»، وبالنسبة لمدرسة الفلاح يتذكر بن شمبر انه مع مجموعة من طلاب المطاوعة «ناصر ومحمد وحسين أبناء عبد اللطيف خرجنا الى مدرسة الفلاح فقال لنا المدير انتم متعلمون وتحفظون القرآن، فقلنا له نريد تعلم الكتابة والحساب، لكننا بعد فترة تركنا الدراسة وذهبنا الى الغوص! الدنيا تشبه الحلم وحين أذكر تلك الأيام اجد شيئا شبيها بالخيال فأين اولاد الشندغة؟ وأين مدرسة فطيمة الكتومية ومدرسة ملا موسى؟».

ومادام بن شمبر لا يتذكر تاريخ افتتاح تلك المدارس فان كتاب

«تطور التعليم في الامارات» لمحمد حسن الحربي يشير الى ان الشيخ احمد بن محمد الشيباني مدير المعاهد الدينية بدبي يروي بأن الأحمدية جاءت بعد مدرسة اخرى قبلها اسمها «الفلاح». غير ان التاريخ المكتوب على أحد جدران الأحمدية يشير الى «1912» بينما يروي الشيخ محمد بن يوسف الشيباني وهو موجه في المعاهد الدينية بدبي أن مدرسة الفلاح تأسست في العام 1926 على يد محمد علي زينل، مما يعني أن الأحمدية هي الأولى، والفلاح الثانية في الترتيب الزمني وهذا أيضاً ما يشير له خلفان بن شمبر بقوله: «ان الأحمدية فتحت الأبواب أمام تطور التعليم في دبي».

«لقد اصبح لدينا مدرستان: الفلاح، الأحمدية. وتاريخان: 1912 و 1926 أي أن الفارق الزمني بين التاريخين يقدر بنحو 14 عاما والسؤال هو: اذا كان التاريخ 1926 هو تاريخ تأسيس مدرسة الفلاح، كما أكدته الروايات، واذا كانت مدرسة الفلاح، قد سبقت من حيث التأسيس مدرس الأحمدية، فمعنى هذا أن التاريخ المكتوب على جدار المبنى لا يؤرخ لتأسيس مدرسة الأحمدية أو الفلاح بل يبقى في الحالة هذه تاريخاً لانشاء المبنى نفسه، وعليه فانه ليس بوسع المرء الا اعتبار العام 1926 تاريخاً لبدايات التعليم الشعبي الذي هو تاريخ تأسيس مدرسة الفلاح في دبي».

وهناك من يؤكد ان بداية التعليم الشعبي في دبي هي في العام 1926، بينما يروي خلفان بن شمبر «ان الكتاتيب موجودة قبل الفلاح والأحمدية بسنوات طويلة». بدليل انه كان في أحد هذه الكتاتيب وحين تم افتتاح مدرسة الفلاح ذهب اليها متعلماً ليلتحق بفصولها.. صحيح أن الفرق بين الحالتين يكمن في تعلم الحساب

والكتابة والخط في الثانية بينما الأولى تقتصر على تعليم القرآن الكريم قراءة.

وهناك عشرات المدارس القديمة في دبي، منها مدرسة المكتوم التي ازالتها البلدية ليتحول المكان الى حدائق فيها نصب خاص بالمدرسة القديمة، اما الاحمدية فهي من أقدم مدارس دبي وتقع في منطقة الرأس وعمرها أكثر من سبعين سنة، هذه المدرسة قررت البلدية صيانتها وعينت لذلك استشاريا لدراسة اسلوب الصيانة، فهي جزء من دبي القديمة والحفاظ عليها يدخل في نطاق الحفاظ على معالم دبي الأولى.

لكن مدرسة الشعب في بر دبي تحولت الى موقف للسيارات ضمن مشروع كبير لمواصلات السفر براً الى دول مجلس التعاون الخليجي وأيضا الحدائق العامة. وسوف تقوم التربية بتسليم مدرسة خولة «قرب قلعة الفهيدي» الى البلدية، مثلما ستزال المدرسة الأحمدية الثانية التي تقع في منطقة الرأس على الخور مباشرة لحاجة البلدية الى هذا الموقع.

ومن وجهة نظر التخطيط فإن هذه المدارس وغيرها غير صالحة من الناحية الصحية والتربوية لضيق مساحاتها ومواقعها، واذا كانت سابقا مناسبة في الموقع والمساحة، فان هذه المرحلة شهدت تطورا وانتقالا عمرانيا واسعا مما أبرز الحاجة الملحة لاستخدام مواقع هذه المدارس في امور أخرى تنظيمية، وعندما تستغني وزارة التربية عن بعضها فانها تجد البدائل للطلاب دائما.

وعلى الرغم من تلك الضرورات العمرانية فان بعض من درسوا في تلك المدارس يأسفون لهدمها، وعبد الرزاق عبد العزيز احد الدارسين في مدرسة الفلاح يقول: «لم يعد لهذه المدرسة أثر حتى أن جدارا واحدا بقي منها وأزيل قبل فترة، وهذه المدرسة كانت تسمى حوطة زينل، وتقع في بر دبي بمنطقة الغبيبة. الدراسة فيها قامت في أربعة فصول، وتعتبر جامعة، ففيها درسنا القرآن والفقه والخط العربي والتعبير والسنة. أما الخريج فغالباً مايعمل في التجارة. واذا أراد احد تكملة دراسته فانه يذهب الى الهند، لكن لم تكن في ذلك الوقت حاجة ملحة للدراسة بسبب بساطة الحياة وعدم وجود اتصالات او وسائل اعلام».

ويتذكر عبد الرزاق عبد العزيز من كان معه على مقاعد الدراسة في تلك الفترة فيشير الى عبد الله بالهول وراشد الكيتوب ومحمد سعيد الغيث وماجد آل مكتوم والشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم والشيخ حشر آل مكتوم. وفي فترة قيام مدرسة الفلاح والأحمدية تبرع الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم ببيته ليصبح مدرسة سميت «السعيدية». وكانت على طراز معماري قديم ورائع.

ويرى عبد الرزاق عبد العزيز أن التفاعل بين المعلم والطالب في السابق كان أفضل، فهو يلاحظ الآن «عدم وجود ذلك الصدق في العملية التربوية سواء من قبل الطالب أم أولياء الأمور أم بعض المدرسين».

وهذه الملاحظة تذكر بقول بن شمبر حول دور المعلم في

المطاوعة بأن المطوع لم يكن معلما للدين والحساب والقراءة والكتابة فقط بل انه كان الى جانب ذلك قاضياً يستقبل الناس ويحل مشكلاتهم ويبت في مسائل الزواج والطلاق ويؤمهم عند الصلاة ويسهم في المناسبات الاجتماعية.

ويظل البحث عن المدارس القديمة في دبي بحثاً في ذاكرة تراكمت عليها السنوات ومرت فيها حالات وظواهر وخطوط الى حد التشابك الصعب. فدبي اليوم تشهد تطوراً على صعيد التعليم بلغ حداً كبيراً من النجاح في معايشة ومواكبة العصر بكل معطياته العلمية. ■


رحلة الصورة والشهادات

رحلة الصورة والشهادات

كل شيء موثق بالمادة والمجسمات والصور، تعبيراً عن رحلة طويلة وشاقة شهدت بدايات التكوين، ثم نمت حتى اصبحت قادرة على الاعلان عن نفسها.. فهذه صورة تعود الى البذرة الاولى وهذه افادات شهود نادرة، او اعجازات لها معنى. وتلك شواهد وقف الجريمة واحقاق الحق.. كل ذلك في خيمة آمنة، هي عنوان العمل في اربعين عاماً، تلخص مسيرة شرطة دبي في متحف صغير له نكهة المكان والوجوه..

في مساء الثلاثاء... السابع من فبراير (شباط) 1984 وعندما انتهت مهمة وردية آخر النهار جاء الشرطي رقم 5009 محمد المنا الى مخزن السلاح في مركز شرطة المرقبات بدبي لتسليم عهدته من السلاح والذخيرة «مسدس أميركي عيار 38 سعة 6 طلقات» وكان يعتقد انه قام بتفريغ المسدس بالكامل ثم سلمه الى مسؤول السلاح. وعندما فتش العريف محمد حسين صالح السلاح ليتأكد من خلوه من الذخيرة اندفعت طلقة وارتطمت باطار الألمنيوم الخاص بنافذة مكتب الأحوال مغيرة اتجاهها صوب صدر الشرطي محمد المنا من جهة القلب فشطرت الصافرة المعلقة على

جيبه الأيسر واستقرت في قاع الجيب دون خدش لجسمه أو حرق لملابسه!

وفي العام 1983 عندما كانت الطائرة المنكوبة تهوي فوق منطقة سيح الدحل بالهباب في واحدة من الحوادث المؤسفة، كان فيها 111 شخصاً راحوا مع كل شيء ضحية ذلك الحادث الا نسخة من القرآن الكريم التي مستها النار من الأطراف فقط، وبقي كلام الله في برد وسلام!

وفي مساء الجمعة 21 ديسمبر/ كانون الأول عام 1978 قال الرائد جمعة أمان عبيد مايلي: «كنت أقود سيارتي في منطقة الحمرية بدبي وكان جهاز اللاسلكي مفتوحاً فسمعت غرفة العمليات بشرطة دبي تبلغ الدورية رقم 512 «أعلمنا أحد المواطنين تلفونياً من منطقة الحمرية يفيد بأنهم شاهدوا الطبق الطائر في سماء دبي»، فقلت لغرفة العمليات تأكدوا من صحة البلاغ فربما يكون كاذباً، فردت غرفة العمليات بأن الشخص الذي أبلغهم ترك اسمه ورقم هاتفه لدى الشرطة. وبما انني كنت موجوداً في المنطقة ذاتها فقد أوقفت سيارتي خلف منزل السيد عمر بن حيدر على الشارع المار أمام ميناء الحمرية وفجأة شاهدت الطبق الطائر، كان يشبه المصباح الدائري ولم أر مثله في حياتي!».

هل كانت تلك الحكايات ضرباً من الخيال؟ اذن لابد من وضعها في مكان ما لتؤكد صحتها: القرآن الذي لم يحترق والصافرة التي انشطرت وصورة الطبق الطائر، كلها موجودة في

متحف شرطة دبي، المعلم الجديد من المعالم الحضارية لمدينة دبي، والذي يحكي عشرات الأعوام من الجهود والعمل المتواصل والأحداث التي تقترب من الخيال، ومن حيث شهد العام 1956 تأسيس شرطة دبي وحتى الآن كان لا بد من توثيق كل شيء يؤكد فاعليه وأهمية هذا الجهاز في حياة المجتمع.

ولذا بدأت قاعات هذا المتحف الجديد والأول من نوعه في الامارات تزدحم بالأدلة والموجودات الملموسة لعشرات الأحداث الكبيرة سواء ما يتعلق باكتشاف الجرائم أم الانجازات الاجتماعية التي حققتها شرطة دبي. فكيف ولدت فكرة انشاء هذا المتحف، وما هي التفاصيل التي رافقت انشاءه وتجميع موجوداته من الصور القديمة النادرة والآلات والأدوات المستخدمة في الجرائم ووسائل التهريب، والأزياء والكؤوس الرياضية وأعمال السجناء والخدمات التي قدمتها شرطة دبي خلال حوالي 40 عاماً؟ الاجابة عن هذا السؤال تبدأ من صاحب الفكرة...

يقول العميد ضاحي خلفان تميم قائد عام شرطة دبي: «في أرض جرداء رملية تهب عليها العواصف فتمحو الآثار التي يبدو اقتفاؤها صعباً. أحببت أن أرجع للبحث عن هذه الآثار فوجدت ذلك ليس سهلاً لأن الناس اعتادت عدم الاحتفاظ بالقديم ورميه خلف الظهور، والجري نحو كل ما هو جديد دون مراعاة للماضي. لذا بدأت الفكرة، وكان الحظ حليفي مثلما هو دائما، حيث عثرت على رجلين هما المقدم عبد الرحمن رفيع مدير التخطيط في قيادة شرطة دبي وفنان أفغاني خطاط ورسام.. إن عملا من هذا النوع لايقوم بمجرد اصدار أمر وانما بتضافر الجهود وتوافق وجهات

النظر، وهذا ما حدث فعلاً».

واذا مـا قـيس عـمـر شرطة دبي بتجارب اخرى في العالم فان فترة عشرات الاعوام ليست طويلة لكي تؤسس متحفاً لآثارها، الا ان الأمـر مختلف هنا حـيث توافـرت وسـائل عـديدة لقـيام هذا المـتـحـف: «وقـد أثـنى الزائرون على هذه النقطة خـاصـة وانـهم شاهدوا من قبل متاحف مماثلة في دول اخرى في بريطانيا وبعض دول آسيا».

الا ان مـثل هذا المتـحف كـان لابد ان يقـام في مـركز الشرطة القـديم «مـركز نايف»، وهو المبنى الذي بدأ منذ العام 1956 ولا يزال موجوداً يخضـع لكثير من العناية، لكن العميد ضـاحي خلفان يشير الى أن: «الانـتـقـال سـيـتم في مـرحلة مـقـبلة، وهذا متروك للمستقبل». اذن، تبدأ المتابعة من بداية التكوين حيث الصورة التي شكلت النواة الاساسية لاقامة متحف شرطة دبي..

فـفي أحد أروقة المتحف مجموعة من الصور التي تمثل توثيقا للقـيـادات الخـمس منذ العام 1956 وحتى القيادة الحالية. يقول المقـدم عـبد الرحمن محمد رفيع مدير ادارة التخطيط: «ان مرحلة جمع الصـور شـهـدت متابعة جادة حيث استطعنا الاتصال بعدد من الاشخاص الذين نعرفهم وبعضـهم يعملون في مؤسسات ولـهم مناصب عليـا، وسألنا كثيراً عن الأساليب والواجبات والحراسات قديماً لنخرج بتصور صحيح في تنفيذ المعروضات».

ويتـوقف العـميد ضـاحي خلفان عند الصور التي تبدأ بالقيادة الأولى وعلى رأسـهـا القـائد النقـيب بيتر كلايتون، والثانية جورج

لوريمـر والثـالثـة جاك بريكز والرابعة عبد الله خلفان أبو الهول: «أنا عـشت مـرحلة انتـقـال القـيـادة الى مسؤولية المواطن ولذلك حـرصت على وضـع المراحل كـاملة في المتـحف ليقف عندها الأبناء ويدركـوا مـا حدث من تغيير تام. وقبل هذا وذاك هناك مرحلتان مـهـمـتـان سـجلهما المتحف: الأولى تعيين سمو الشيخ محمد بن راشـد في العـام 1968 والثـانيـة التـغيير الذي حدث نتيجة لهذا الحـدث، ورغم أن أعمار القـيـادات الشابة المواطنة كانت في نهاية السـتـينات صـغيرة الا ان خطوة الانتقال كانت شجاعة ما أشعل روح التـحدي والعزم والتصميم على النجاح في هذه المهمة الكبيرة لان الطريق لم تكن مفروشة بالورود».

ويكاد المتـحف يكون معرضا للصور التي حصلت على نصيب الاسـد من جـدرانه ومـساحاته، فهناك صور لاحداث كبيرة تمثل الحـرائق او الجـرائم او الاجهزة والادوات المستخدمة في التهريب وغيرها من الصور التي توثق مراحل عديدة ابتداء من اول شرطي مـواطن «محمـد سـعـيـد بوحميد» وانتهاء بآخر عملية تزوير في العـملة أو جـوازات السـفر. الا ان الجانب الآخر من العمل عكس طرق الحـراسـة قـديما وبعض الدمى التي تمثل ازياء الشرطة في بداية التأسـيس وذلك من خـلال مـعايشة بعض كبار السن لتلك المرحلة. حـيث «كـان الحـارس قـريبـاً من الفرضة وسط الظلام والبضـائع يقف ويصرخ «اشوفك من هناك» هذه الصـورة مجسدة في المتـحف لكي نقـارنها مع التطور الالكتروني في الحراسة ولكي نتـذكـر الماضي. وهناك ايضـا القـيـود التي كانت توضـع في اقدام السـجناء، وهي طريقـة قـديمة تضع السجين في حالة غير منتجة،

بينما اليوم دخلت الحرف الى السجون، وفي المتحف نماذج بالعشرات لانتاج السجناء من الادوات والمصنوعات المفيدة حيث اصبح السجين يعامل معاملة طبيعية.. وهكذا نحن عرضنا أول شرطي واول زي واول امر مكتوب وأول سلاح وفي المقابل عرضنا ما هو جديد من هذه الامور».

الجولة في متحف شرطة دبي لم تكتمل بعد، فاضافة الى الصور وبعض النماذج القديمة للأزياء والآلات هناك الدروع والكؤوس وشهادات التقدير من خلال المشاركات الرياضية في الخارج والداخل على مستوى الشرطة، والملصقات الخاصة بالمرور وحوادثه المؤسفة ومنتوجات النساء والرجال في السجن المركزي ومجسم لمبنى السجن باقسامه المتعددة. وجناح خاص بوسائل الاخفاء والتهريب مثل البرتقال والجوز والاحذية وعلب السجائر. وجناح التزوير والتصوير الجنائي واحدث الوسائل المستخدمة في البحث الجنائي وكل ما يتعلق بمسيرة شرطة دبي خلال سنواتها الماضية.

هذه الموجودات يشير اليها العميد ضاحي خلفان بانها مبعث فخر واعتزاز: «لقد وفقنا في هذا المتحف، وحصلنا على اكبر قدر من الآثار وحفظها من التلف، واذكر بعد تخرجي انني حصلت على مجموعة من الأوامر المكتوبة للاطلاع عليها ودراسة اساليبها، ثم أعدتها الى مصدرها باستثناء عدد من الاوامر التي احتفظت بها.. وعندما فكرنا باقامة المتحف سألت عن تلك الاوامر فوجدتها تالفة بالكامل،وهنا رجعت الى ما تبقى لدي وهو الآن موجود في المتحف».

يقول المقدم عبد الرحمن رفيع: «ان العمل بالمتحف بدأ في العام 1985 وتم الافتتاح في 19 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1987 اي بعد سنتين من الاعداد. وخلال هذه الفترة لم يكن العمل متواصلا بل كان متقطعاً نظرا لاننا لم نستعن بغير طاقات شرطة دبي من الفنيين، وكنا نسأل عن المادة ونتابعها ثم نحصل على بعض الصور او الآثار بالمصادفة، ونأخذ آراء بعض الاشخاص عن هذه الفكرة او تلك لنرى اننا طبقناها بشكل صحيح ام لا. وفي عملية البحث عن ازياء الشرطة قديما ذهبت الى تاجر كان يبيع هذه الملابس وهو عبد القادر بالشالات لكي اسأله عن ألوان واشكال الازياء فقال لي: عندي بقية منها خذها للمتحف!».

وبعد ان ظهرت الفكرة الى حيز الوجود بدأت الآثار والصور تأتي من بعض الناس الذين يحتفظون بها، لذا يقول المقدم عبد الرحمن رفيع: «اننا في يوم ما سنجد المكان ضيقا، لأن هناك نية لتوسيع المتحف باشتراك اقسام اخرى مثل الضفادع البشرية وفرق الانقاذ البري والبحري، وكذلك ادارة التحريات والمباحث وقسم الضبطيات، والبصمات بالاضافة الى ادارة الخدمات التي ساعدتنا على اقامة هذا المتحف، وهكذا سيكون مركز نايف في المستقبل هو المكان الصحيح للمتحف».■



نـــد الشبـــا

هو للتـجـارة والسـفـر والبريد، وهو للحـرب والزراعـة والغناء.. مـوضـوع القـصـة ومـوضـوع القصيدة، وصديق الشعراء في وحدتهم وطـريقـهم الطويل، انه الجـمل، ذلك المرتبط بعـلاقـة الأرض والبـيئة، والذي حين وصل الى أسـبانيا ثم أوروبا عاد واختفى من هناك ليظهر في بيئته الصحيحة، صحراء العرب وحرقتها..

عـشرة كـيـلومترات في منطقـة «ند الشـبـا».. تعني الكثير! فلو امـتـدت هذه المسافة طولا لبلغت احضان التاريخ العربي وكشفت عن علاقة لا حدود لأبعادها، ليس لأن سفينة الصحراء هـي أفضل من تمثل بـ «القناعـة كنز لا يفنى» فشربت الرمـال حين عطشت! بل لأن «المنخّـل» قـديما فـاجأ الجـميع بأن «بعيره» يمتلك عاطفة الحب فانتبهوا له. اما حاضرا فإن تلك العشرة كيلومترات في منطقة ند الشـبـا يوجزها سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ببضع كلمات هي الاخـرى تمتـد على مـسـافـة وجود كامل من الارض والحـيـاة والتراث والبيئة: «مضمرات الهين نقصد.. في موكب فيه احتفال» فهل بعد ذلك من حاجة لوضوح؟

إذن، هــي الإبل، التي عـجـزوا عن تفـسـير «كـيف خلقت» منذ ظهورها لأول مرة في حضرموت وحتى وصولها الى اسبانيا مع ما وصل من أثر عربي، ثم اختفت لتظل ملتصقة هنا؛ توأم الصـحراء العـربيـة وحـرقـتها، وهي بذلك ذات حظ وافر إذ لا حياة لها من دون هذه الأرض.. تعرف ذرات رمالها وتجد عليها حرية التوالد والغذاء.. والفرح!

الفـرح؟ نعم، وليس ذلك مـقتصراً على الخيول والكلاب وغيرها من الحـيـوانات. فـالإبل بما امـتلكت من قـدرة على إقـامة علاقة تاريخيـة مع الانسـان، امتلكت ايضا قدرا من الاحساس بالأشياء والممارسـات التي تدور من حـولها، فكانت افضل الحيوانات التي تقدر المعاملة الحسنة، تفرح وتمزح وتخطط للانتقام ممن يظلمها. لكنهـا جـادة وذات قـدرة هائلة على تحـمل الصـعاب بكل أشكالها ومـضـامينها.. فإذا كان الحديث عن طبيعة هذا الحيوان وتاريخه وعـلاقـته بالمجتمع العربي قديماً وحديثاً يعتبر معادا، إلا انه فيما يتعلق بدخوله مضامير السباق يعتبر جديداً، رغم ان هذه الظاهرة وجـدت مع وجـود الجـمل، لكنهـا اليـوم تاخذ أبعاداً أخرى وفق معطيات العصر وما تغير في النظرة الى التعامل مع الأثر القديم.

في صـحراء دبي، تقع منطقة ند الشبا، والند هو المكان المرتفع. امـا الشـبا فهو نوع من العشب ينمو لوحده بعد هطول المطر.. في تلك المنطقة تمتد مسافة عشرة كيلومترات مسيجة بسياج حديدي، أعدت لتكون مضمارا او مركاضا لسباق الهجن العربية الأصيلة.. هناك يصـول صـوغـان وظبـيان ومصيحان والورى، تلك أسماء عـرفـتـها الصـحراء منذ اكثر من مائة عام ولاتزال سلالتها تتميز

بالاصـــالة والسرعة.. ويعرفها الذين يتابعون السباقات جيدا.. هذه الناقـة من تلك السـلالة، حـتى ان المعلق على سـباقات الهجن علي سـالمين يقـول: اصـبحت أعرف كل نوع منها وأتنبأ بفوز هذه أو تلك، فـقـد أقـمت علاقة معرفة بتلك الانواع من الجمال من خلال التعليق الذي بدأت به منذ سنوات طويلة.

ومع علي سـالمين نفترش الرمـال امـام المضمر عتيق بن سالم بالعرطي وهو يشير الى عدد كبير من الجمال.. إلى أي أنواع تنتمي وكيف تتهيأ للسباق. ويتحدث عن شروط تضميرها..

وما هي..؟

«الاسـتـعـداد للتـضـمير يبدأ منذ الولادة، وهي عملية تدريب تخضع لبرنامج غـذائي مـعين حسب الخبرة، وليس أي شيء آخر. والطرق التي أقـوم بها لا أسـتطيع ان اعلن عنهـا خـوفـا من ان يأخـذها غيري، فكل واحـد له طريقـتـه سـواء كانت صحيحة أم خاطئة. فالمهم ان المضمار هو الذي يحكم».

والتـضـمير من الضمور اي جعل الناقة بوزن خفيف من خلال عـمليـة «ريجيم» مدروسة غذائياً وطبيا لكي تكون مؤهلة للسباق وهي نحـيـفة، خفيفة، قادرة على قطع مسافة طويلة في المركاض.. لكن مـتى تتأهل الناقـة لدخـول السـبـاق؟ يقـول المضـمر عتيق بالعـرطي: «عندمـا تكون (حـجة) أي عمرها سنتان وقبل ذلك لا يسمح لها بدخول السباق، أما التمرين فيبدأ منذ الولادة حيث يتم تضميرها طيلة فترة السنتين فتكون ساعتها مؤهلة للسباق».

والاسـم «حـجـة»هو واحـد من عشرات الاسماء التي تطلق على

الجمال حسب فترات العمر او الجنس او الاستعمال.. وفيما يخص فترات العمر فان الجمل عندما يولد يسمى «حوار» وبعد مرور سنة يسمى «فطيم» وبعد سنتين يسمى «حج» يعقبه اسم «لجي» وعمره ثلاث سنوات، أما في الرابعة فاسمه «ايذاع» وفي السنة الخامسة يسمى «الثني» وفي السادسة يسمى «رباعي» وفي السابعة «سداسي» وفي الثامنة يسمى «أول فطر»، وبعد ذلك يدخل الجمل مرحلة الكبار وتسمى «حول» للإناث و «زمول» للذكور.

وتلك أسماء قديمة لها علاقة بالبيئة الصحراوية منذ القدم.

وتبعاً لتلك المراحل في العمر، فإن الجمل يستطيع الركض في السباق لمسافة محددة حسب العمر، كما يقول المضمر عتيق بالعرطي، «فالحجة لا تستطيع ان تركض اكثر من مسافة 4 كيلومترات اما اللجية فقدرتها تتروح بين 4 و 5 كيلومترات والايذاع والثنايا بين 6 و 8 كيلومترات، بينما تصل قدرة الحول الى 10 كيلومترات. وهذه المسافات في ميادين السباق بدولة الامارات، اما في غيرها من الميادين فهناك مسافات اطول تصل الى 19 كيلومترا»، وبينما تصل قدرة الحصان على الركض، الى 80 كيلومترا في الساعة، فإن الناقة تصل سرعتها القصوى الى 40 كيلومترا في الساعة اي نصف المسافة، الا ان اللافت هو عدم قدرة الحصان على تجاوز 3 كيلومترات ركضا متواصلا بينما تواصل الناقة 30 كيلومتراً من الركض.

وأثناء حديث المضمر كان علي سالمين يضيف بعض الملاحظات من خلال معرفته الكاملة بالهجن وإعداد الأصايل للسباق وما

يتطلب ذلك من فحص بيطري على نسبة الحديد ودرجة حرارة الجسم: «أنا انفعل في التعليق أيضا فقد أصبحت لي خبرة في هذا المجال».. والحقيقة ان سباقات الهجن تنظمها لجان على مستوى الدولة وترصد لها جوائز قيمة من قبل أصحاب السمو الشيوخ ذلك لأن هذه السباقات كما يصفها الدكتور عمر محمد عبد الله في كتابه: «الابل.. تربية ورعاية وانتاج» ممارسة عربية قديمة تعبر عن الفرح بالاعياد والمناسبات والمهرجانات الموسمية.. وفي الحاضر كسبت سباقات الهجن بعداً رياضياً في الخليج ودولة الامارات.

وتشهد سباقات الهجن في الامارات مشاركة خارجية متمثلة بدول مجلس التعاون الخليجي واليمن والسودان، وتتشابه الجمال في الشكل على مستوى البيئة الخليجية، لكنها تختلف كثيرا عن الجمال الباكستانية والسودانية والايرانية... إلا أن السلالات المشهورة هي في دول مجلس التعاون حيث يتحمل هذا النوع من الأصايل التعب والاجهاد في ميادين السباق وخارجها. لذلك فإنها تسمى بأسماء الجمال القديمة ذات الشهرة الواسعة بين القبائل وأصحاب العزب ومحبي سباقات الهجن.

ويتحدد الاستعداد لموسم السباقات بتحديد فترة التمرين المناسب التي يقول عنها عتيق بالعرطي انها: «تبدأ في أواخر موسم الصيف حيث يتم فحص الجمال بشكل كامل ثم اتمام عملية التضمير والتدريب على الركض مع وجود الراكب الذي يشترط ان يكون خفيفا لايتعدى وزنه 35 كيلوجراما، لذا فإنه

يجب ان يكون صـغير السن ولديه مـعـرفة كاملة بالجمل لكي لا يثـقله اثناء الاشتراك في السـباق».. أما الوجبات الأساسية لجمال السـبـاق فإنها تتكون من العناصر الأسـاسـية: الجت او البرسيم والتـمر واللبن والحليب والسمنة والعسل والبيض وذلك يدخل في العـوامل المهـمـة لنشـاط الجمل واستعداده لخوض السباق.. ولا ينسى بالعـرطي ان يشير الى مـهـاراته وقـدراته في التضمير «أنا قـادر على ان اضمر 90 رأسا وهو عدد كبير لكنني اعتني به على مـدى سنوات قليلة ثم اعـده للسـبـاق.. أمـا عـدد السباقات التي تسـتطيع الناقـة ان تشـارك فـيها فيصل الى 8 أو 9 سباقات (في السنة) أو الموسم حسب قدرتها على ذلك وحسب نجاح المضمر».

ذلك هو الجـمل الذي شـغل عشرات الاسـتخدامات عبر تاريخ وجوده في المنطقة العربية؛ فهو للسفر والترحال، والبريد والتجارة، وحراثة الأرض، وترحيل المحصول، ورفـع مياه الشرب، واكتشـاف المعـادن في المناطق الجـبليـة، كما هو للحـرب والانتـاج والشـعر والغناء، صديق العمر ورفيق الدرب، موضـوع القصة والقصيدة.. ووصـفة الدواء الأكيدة.. أليس حليب الناقة من أهم انواع الحليب المعـروفـة في العالم الى درجة انه يتفوق على حليب البقر بعناصره الغـذائية؟! وها هو يتسابق ويتحدى ويسلك سلوكا يتفوق به على بعض الحـيـوانات، لتـبقى تلك العلاقة بين الجمل والبيئة العربية رغم أن بعض الدوائر الغـربيـة تصـور ان هذه العـلاقة نوع من التـخلف دون ان تعـرف شيئا عن العرب تاريخاً وحاضراً أو انها تعـرف فتتجاهل بفعل نظرتها العدوانية، حتى ان استاذا في احدى

جـامـعات كاليفورنيا يقول لطالب عربي يدرس هناك: هل مازلتم تسـتـخدمون الجمل في تنقلاتكم اليومية؟ فرد عليه الطالب ـ وهو خليـجي ـ بذكـاء: نعم دكـتور، فأنا حين أذهب الى العمل استخدم الجـمل وكذلك حين اعود الى البيت، فأربطه عند الباب، واذا اردت التـسـوق في احـد المجمعات التجارية أذهب على ظهر جمل وكذلك فـعلت حين جئت الى كـاليـفـورنيا، وإذا لم تصدق اخرج الى باب الكلية وستجد جملي مربوطاً هناك!!■





رائحة الكهوف في الراشدية

باب حديدي، ثم باب خشبي، وتبدأ رائحة الكهوف، الراشدية منطقة حديثة في دبي، من أين جاء كل هذا القديم بترابه ورائحته وصدقه؟

ضحك محمد مطر السويدي من هذا السؤال، فيضحك معه المكان المعبأ بكل ما هو قديم من أدوات وآلات منزلية وبحرية وصحراوية: «هذه هوايتي، منذ ثلاثين عاما، وانا جمع التحف من كل مكان في العالم: افريقيا، الهند، ايران، تركيا، البلاد العربية، ومنطقة الخليج اولا».

المدخل غرفة مربعة فيها بعض العملات والصناديق الخشبية القديمة. انه مكان يدعو الى احترام الفكرة والتعاطف معها. لكن هذا الشعور يتحول الى ما يشبه صدمة عندما تعلم أن هذه الغرفة تؤدي عبر باب مغلق الى صالات أخرى وغرف مليئة بعشرات الآلاف من القطع القديمة التي يقول عنها السويدي معلقا: «كل شيء يعود الى 250 سنة».

انها المفاجاة بالتأكيد.. فهذا الرجل الذي فقد بصره في الغربة قبل اكثر من ربع القرن، اصر على ان يبقى مع رائحة وأجواء ذلك

الوقت لكي يراه بيديه ويتحسسه بأنفه.

كان عمره 18 سنة عندما رحل الى زنجبار، تلك الرحلة التي دامت عشرين سنة في العمل والتجارة، توجتها الاقدار بالعمى، ففقد الشاب محمد مطر السويدي بصره اثر مرض في عينيه بينما كان يتهيأ للعودة الى الوطن. ما الذي تبقى له، إذاً؟ وكيف سيشاهد الأهل وملاعب الطفولة ويوميات الحياة الاولى؟ فكان لابد من «المتحف» وكأنه الرد المناسب على جيوش الظلام.

لذا يبدو الشعور بالصدمة مناسبا لمجرد مشاهدة ذلك الكم الهائل من الموجودات القديمة التي خرجت عن مستوى الهواية، الى مستوى الخرافة، انها «غول» أتى على كل شيء في محفظة محمد مطر السويدي: «لقد تعبت وانا أبحث عن التحف، ولم يبقَ عندي ما يعود الى نفسي، ولو صادفت قطعة بأي ثمن، أضغط على العائلة لخلق ظروف مناسبة لشراء تلك القطعة».

يعرف السويدي جهده تماما. وحين يتوقف في احدى الزوايا مشيرا الى مجموعة ادوات، فإنه يعرف المكان تماما حتى لكأنه يبصره، ثم يشرح: «الصناديق الخشبية المرصعة والمزخرفة هي من أهم أدوات العائلة القديمة، فيها الملابس والحلي والخصوصيات الاخرى، اما أنواعها: فهذا سرتي، وذاك سيلاني، وذلك شيرازي، أو أفريقي، أو سيسم، أوعماني».

تتمتم في داخلك: كان الله في عونك، ان جهدا مثل هذا في حاجة الى قسم كبير في وزارة تعنى بالتراث مثلا، فكيف تم جمع كل هذه الاعداد الهائلة من الأسلحة (سيوف وبنادق وخناجر)

والصناديق، والسجاد، والصور، والعملات، والحلي، والأدوات المنزلية، وأدوات الصناعات اليدوية التقليدية، والزراعة، والغوص، والسفر؟ مجموعات تكونت قطعة فقطعة، من دون نقص يشكل ثغرة في تسلسل المواد، لا بل ان هناك عشرات التحف المكررة. ولا يتردد محمد مطر السويدي عن القول بفخر: «انتقلت الهواية الى أبنائي، وأصبحنا جميعا نهتم بالبحث عن التحف في كل سفرة الى الخارج او في داخل الامارات، واسألوا ابني سعيد».

سعيد يبدو الاكثر اهتماما من بينهم، يشارك في البحث والشراء، وفي التنظيف والتركيب وتقسيم المواد حسب الاستخدام. ومع ذلك يبدو الأمر اكبر من طاقتهم جيمعا. فالمكان اصبح ضيقا، وبعض المواد موزعة بطريقة عشوائية، أو مخزنة الى اشعار آخر. يقول محمد مطر السويدي: «أتمنى لو أحصل على مكان واسع افتحه بصفة متحف للزوار من طلبة المدارس وغيرهم للتعرف الى هذه الاجواء وكل ما يتصل بالقديم. ان هذا المكان هو جزء من بيت ابني الذي لم يبقَ لديه سوى غرفتين مع أسرته، انني ادعو أي جهة معنية بالتراث ان تأخذ مني هذه الثروة وتضعها في مكانها اللائق، أو ان توفر لي قطعة أرض، فأقوم انا بهذه المهمة».

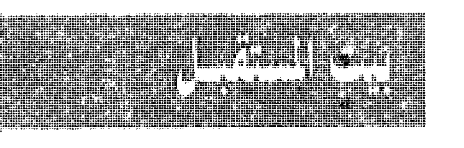
ويقول محمد مطر السويدي: «لا أستطيع ان اعد بالتوقف عن شراء المزيد، ففي كل رحلة الى الخارج اتوقف في الاسواق لاعثر على قطعة قديمة. وبين الاقبال والتردد أجد نفسي متورطا في الشراء». ورغم تحمسه لهوايته والاعتزاز بما لديه من «ثروة» يصف هذه العملية بأنها قاتلة: «عانيت منها ثلاثين سنة، وسببت لي المتاعب، اتمنى ان تتركني لحالي، هذه الهواية التي جبت الأرض

مـن اجلـهـا، وتحـدثت بعشرات اللغـات والاشـارات في اسـواق ومطارات وجمارك الدول في انحاء العالم شتى».

ويبـدو من الصـعب عـمل احـصائية في «متحف» السويدي او حـتى التـوقف بدقة امام بعض الاقسام.. فالصدمة تبقى حاجزا، والحـرارة ايضـا. مـثلا لديه عشرات الخزانات القديمة ذات المرايا الخـارجـيـة، معبأة بالصحون القديمة «الصيني». أما الفخار فهو ركـام هائل من كل الانواع والأحـجـام، بينما تبـدو غـرفة النوم القـديمة مرتبة بطريقة «التحنيط»، فكل شيء على حاله لكأن النائم قـام لتـوه من الفـراش. وفي كل هذه الاقسام صـور مرصوفة على الجدران لزعماء ورؤساء قبائل من قديم الإمارات والهند وزنجبار ومصر والعراق واليمن وبريطانيا والسعودية.

كيف يمكن اختزال ثلاثين عاما في ساعة واحدة؟ العملات فقط في حاجة الى ايام لكي يتعرف الزائر الى أزمنتها. عملات متراكمة في صحون كبيرة، تلال من المعدن الصدىء القديم المزخرف والمثقوب والمدور والمربع، الى درجة ان محمد مطر السويدي نفسه لا يعرف بالتحديد انواعها وازمنتها.

الأبواب المزخـرفـة، ودلال القهوة، والتماثيل الهندية، والسجاد الـقـديـم، والمصـاحف، ورائحـة الكهـوف التي لا تطردها المراوح والمكيـفـات.. وفي سجل الزيارات كتبنا: العم محمد السويدي، انت مـدهـش وفـنـان، كـيف حـولت الظلام الى مـادة ترى وتتـحـدث وتتحرك؟ قرأها له ابنه سعيد، فضحك وكأنه أجاب عن السؤال.■


بيت المستقبل

T·A·D·A·I·M·D·A D·O·R·I·O·D·E·I·V·G·O

بيت المستقبل

ليس كما يشاع بان الوجه لا يدل على العمق، الا في غياب عافية النوايا، فبين الوجه والعمق ثمة علاقة استقرائية ليس بالضرورة ان تكون حالين منفصلتين، بل هي علاقة اكيدة وثنائية بين الوجه وملامح الروح، وبين الكلمة والمعنى، وبين المدن وعناوينها! هل كانت بوابة عشتار وجها لبابل أو عمقها؟ وهل الاهرام وجه مصر أو عمقها؟ وهل اعمدة الاكروبولس وجه اثينا أو عمقها؟ لا معنى للاجابة بعيدا عن معرفة وجه العمق، ذلك الفعل المتصل باثره، ووجوه الحي القائم على صداقة الزمن لا الركون الى سلطانه.

فعندما انتشر المستشرقون في البلاد العربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تكن الطرق مفتوحة امامهم فظلوا يتخبطون باحثين عن رأس الخيط.. وبعد فترة اهتدوا للمداخل.. انها وجوه العمق وعلامات النبض التي فيما بعد على لوحاتهم النفسية تعكس اصل مراكش وفاس والقاهرة ودمشق وبغداد، أليس لكل زمن علاماته ولكل مدينة مداخلها، ولكل وجه عمقه؟!

إذن، اختارت مدينة ابوظبي وجهها الصحيح ليقف على مساحة

عرضها البناء الثقافي والحضاري والمعرفي، فعندما تدفق الخير من مكنونات ارض الامارات، بدأ تصدير النفط من ابوظبي في العام 1962 وانطلق الانسان فيها ليعوض سنين طويلة من الحرمان، ولم تقتصر الاندفاعة على بناء الطرق والمساكن والمدارس والمستشفيات والموانىء والمطارات والجامعة، بل كان من بين الاهتمامات الرئيسية اذكاء روح الثقافة ونشرها وتعميق جذورها.

وفي اطار هذه المسيرة جاء انشاء المجمع الثقافي بأبوظبي الذي بدىء التفكير في اقامته بعد اعلان استقلال دولة الامارات. وتحمل المكاتبات الاولى بين الجهات الرسمية في شأن المشروع تواريخ تبدأ بشهر مارس/ آذار 1972 ثم استغرقت عملية البناء وانشاء المبنى الجديد للمجمع فترة تزيد على ثلاث سنوات «1977 ـ 1981».

وقد تحددت صفة المجمع بأنه هيئة عامة لها الشخصية الاعتبارية المستقلة ويتمتع بالاهلية الكاملة للتصرف، ومن بين أهدافه القيام بدور ثقافي رائد يشمل اذكاء جذوة النشاط الثقافي من خلال دار الكتب وتنظيم الندوات والمحاضرات والحلقات الثقافية والمسابقات، واقامة المعارض التشكيلية والعروض الفنية، ورصد تاريخ الامارات والخليج وجمع الوثائق. ولكي يتحرر المجمع الثقافي من قيود الروتين فقد اعطت حكومة ابوظبي له صفة استقلالية، فهو لا يتبع اية وزارة او دائرة حكومية، أما السلطة العليا فيه فقد وضعها القانون رقم 7 في يد مجلس أمناء لا يقل عدد اعضائه عن خمسة، ولا يزيد على أحد عشر عضوا بينهم رئيس مجلس الأمناء العام. ويضم المجمع بجانب مجلس

الأمناء، أمانة عامة وثلاث مؤسسات هي: دار الكتب الوطنية، مركز الوثائق والدراسات، مؤسسة الثقافة والفنون.

ومن الخارج يبدأ الناظر اليه بالاعجاب، فهذا المبنى الكبير للمجمع الثقافي صمم على الطراز العربي الاسلامي، وتميز بالأقواس الكثيرة والممرات الطويلة المسقوفة والمقامة على أعمدة سامقة، وتتخلل جانبي كل ممر أقواس متجاورة من بدايته الى نهايته.. هذا الشكل يؤكد على الهوية العربية الاسلامية مثلما تؤكد الاشكال الاخرى للمراكز الثقافية في العالم على طبيعة وهوية كل بلد، بحيث لم يغفل تصميم مركز بومبيدو الثقافي في باريس عصر التكنولوجيا المتطورة في الغرب، فجاء المركز كله من الحديد ومن دون ان تدخل فيه المواد الاخرى.

أما المبنى الثاني للمجمع الثقافي وهو مقر مركز الوثائق والدراسات، فهو مبنى أثري كان مقرا لحكام امارة ابوظبي، وقد بني أول مرة بعد انتقال حكام ابوظبي من واحة ليوا الى جزيرة ابوظبي حوالي سنة 1793، ثم اعيد بناؤه غير مرة للتوسعة او الترميم مع الاحتفاظ بشكل البناء وزخارفه.

وقد شهد المجمع الثقافي في السنوات الاخيرة نشاطا ملحوظا على مستوى الفن التشكيلي والمحاضرات ونشاطات المرسم الحر، وطباعة الكتب الخاصة بالامارات وتراثها.. ويقول الدكتور وليد عكو (احد العاملين في مؤسسة الثقافة والفنون): «نقوم بتنفيذ خطة نشر موسعة في مجال الكتب ذات العلاقة المباشرة بحياة الامارات اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا؛ فقد نشرنا عددا من

الدراسات والموسوعات عن الابل والغوص والتعليم وجميع التحقيقات المصورة عن الامارات في الصحافة العربية. وحاليا تعمل لجنة النشر على تطوير خطتها بهدف احياء تراث الامارات بحيث يكون للمجمع دور طليعي ورائد في تدعيم أسس الثقافة من خلال التعاون والتنسيق مع ادارة الثقافة والفنون بوزارة الاعلام واتحاد كتاب وأدباء الامارات ودائرة الثقافة والاعلام بالشارقة وجامعة الامارات والمؤسسات الثقافية الاخرى».

وكأي مركز حضاري اشعاعي لابد من التعاون والاطلاع على تجارب اخرى في هذا المجال. وهناك تعاون بين المجمع ومنظمة اليونسكو واليسكو ومصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق والنمسا وفرنسا من خلال التنسيق وارسال بعثات متبادلة للاطلاع واثراء الحركة الثقافية في مختلف المجالات الادبية والفكرية والتاريخية والفنية.

ويبدو ان للصغار نصيبا في المجمع الثقافي، ففي أروقته الواسعة مراكز واجنحة عديدة في مجالات الكمبيوتر والمطالعة والمرسم الحر والديكور، اضافة الى تدريب المبتدئين من طلاب الجامعة والهواة على مختلف الفنون والأنشطة.

معرفة باتساع الحب، او العكس، ذلك هو الحافز الاول لبناء صروح الثقافة وبناء الانسان. وصحيح ان المجمع الثقافي في ابوظبي يقف على مساحة كيلو مترات مربعة قليلة الا انه يمتد بعيدا في عمق الحياة المعاصرة والمستقبلية، كما يمتد بعيدا في الجذور التي أسست وجود الانسان في منطقة الخليج فكرا

ونشاطا اجتماعيا وحضاريا على مر العصور.

ورغم الحضور المكثف للانشطة والمهارات الذهنية لمختلف الاعمار، الا ان المكتبة تبقى الرمز والاساس الذي يقف عليه المجمع؛ فعلى مساحة واسعة وبشكل مهيب تحتضن الرفوف 75 ألف عنوان في لغات عدة أبرزها العربية والانجليزية، عدا الدوريات والمخطوطات الثمينة والمواد السمعية والبصرية.

وعلى مدى أربع سنوات جُمع هذا العدد من العناوين بطرق شتى، وللمجمع علاقات تبادل المطبوعات مع معظم المكتبات العربية والاجنبية. وتشهد المكتبة حركة تردد واسعة وصلت الى 57 ألف زائر في العام 1988 أغلبهم من الرجال والطلبة، وتعتمد المكتبة على نظام ديوي العشري وهو نظام يقوم على أساس تفريعات المعارف الى تقسيمات عشرية تستوعب كل العلوم. أما الاعارة فهي خاصة بالجامعيين وطلبة المعاهد وموظفي الدولة بناء على رسائل من جهات العمل. والى جانب هذه المكتبة الضخمة هناك قسم خاص بالخليج العربي وايران يحوي كل ما صدر حول قضايا الخليج السياسية والاقتصادية والتاريخية والحضارية بجميع اللغات، اضافة الى المجلات التي تصدر في دول العالم شتى وكل شيء عن العادات والتراث والأزياء.

وبين عشرات الطلبة والقراء الذين يملؤون صالة المكتبة هناك جناح صغير في زاوية، هذا الجناح يضم عالما متكاملا من الحياة الأدبية والعلمية والفقهية واللغوية عبر ورق اصفر باهت مائل الى الهلاك! انه قسم المخطوطات الذي يعد واحدا من اغنى واعمق

الاقسام في المجمع الثقافي.. يضم ثلاثة آلاف مخطوط في مختلف العلوم التراثية والفقهية والنحوية.. وفي هذا القسم يقف خبير المخطوطات والمصورات الدكتور عبد الحميد الرفاعي الذي أوضح معنى تسمية المصورات بقوله: «المقصود بالمصورات ان هناك مخطوطة لا توجد منها نسخة ثانية، ولا يمكن التفريط بها في العرض او التداول، لذا فانها تصور وتعمم على طالبيها لكي يستفاد منها. ولدينا العديد من هذه المخطوطات النادرة حصلنا عليها من تركيا وباكستان وافغانستان، وخاصة اثناء حوادث الحرب حيث تطغى المعارك على مراكز الاشعاع العلمي فتفرقها بايدي سبأ».

ويوجد عدد من المخطوطات في هذا القسم بخط المؤلف نفسه، وهذا يضفي على المخطوطة قيمة علمية كبيرة، مثل «اعراب اظهار الأسرار لمحمد بن بيز علي» الشهير بـ «بيركلي» وهو تركي الاصل يكتب في النحو العربي.

والمخطوطات ثروة علمية كبيرة لم يتسن للعرب الاحتفاظ بها؛ اذ فقدوا اثر النكبات المستمرة عبر التاريخ اربعة ملايين مخطوط هي الآن في متاحف ومكتبات العالم، ففي مكتبة معهد الاستشراق في بطرسبرغ 10880 مخطوطا مفهرسا. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين المخطوطات والوثائق الا ان الأخيرة لا تقل أهمية عن الأولى، لذا فان المجمع الثقافي يقوم على جزء من النشاط العلمي وهو مركز الوثائق والدراسات الذي انشىء قبل المجمع الثقافي بسنوات، ثم اصبح ضمنه مع استقلالية المبنى. فقد انشىء المركز في العام 1968، ومن اهدافه تكوين مكتبة متخصصة تضم

الكتب المطبوعة باللغات المختلفة والوثائق عن منطقة الخليج، حيث كانت موجودة في مكتبات العالم بباريس ولندن، والجامعات والمتاحف. وتم ذلك فعلا، بينما عملنا من جهة اخرى على تسجيل التاريخ المروي من المواطنين وكبار السن بهدف كتابة التاريخ من وجهة نظر عربية، اما الهدف الآخر فهو جمع الوثائق الاجنبية للقوى السياسية التي دخلت منطقة الخليج مثل الوثائق البرتغالية والبريطانية والفرنسية والالمانية، والمعروف ان الوثائق البريطانية من اغنى مجموعات الوثائق نظرا لامتداد الوجود البريطاني من 1820 الى 1971، اضافة الى مشروع جديد لجمع الوثائق الروسية حول منطقة الخليج. والمتميز في عمل المركز انه يقوم بفهرسة الوثائق وبيان مستوياتها لتسهيل الاطلاع عليها، وقد انتشرت فكرة المركز منذ تأسيسه في دول الخليج ونشأت مؤسسات مماثلة فأنشئت في العام 1977 امانة عامة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية وصار لها لقاء سنوي.

وبينما تضج مكتبة المجمع الثقافي بالحياة وفعالياتها الثقافية والفنية يقف على الجانب الآخر ذلك المعلم الهام من معالم النهضة الفكرية، مبنى يمثل بيتاً قديماً، وأروقة تنبض بصوت التاريخ، وأوراقاً صفراء ملونة بخطوط البحارة القدامى، بينما تتقافز التواريخ والمدن على الخرائط: الفترة البرتغالية، الفترة الانكليزية، الفترة الهولندية.. هنا جلفار وهنا خورفكان وهناك مسقط. خمسة ملايين وثيقة عن الامارات ومنطقة الخليج تحكي مراحل الصراع والحروب والتجارة والتكوين الاول لعرب الخليج، جمعها مركز الدراسات والوثائق التاريخية في ابوظبي منذ العام 1968، وهو

المركز الذي أنشىء بأمر من صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة، ورعاية ومتابعة من معالي احمد خليفة السويدي رئيس مجلس الأمناء الذي يشرف على المركز.

ويقول الدكتور محمد مرسي عبد الله مدير المركز «لقد حصلنا على 5 ملايين وثيقة، 60 في المئة منها وثائق بريطانية، من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، وأرشيف حكومة الهند وبومباي ونيودلهي، إضافة الى الوثائق الفرنسية والألمانية والعثمانية، وأرشيف عن حملة محمد علي باشا، وهو جزء من أرشيف القلعة في مصر. وتحكي هذه الوثائق عن منطقة الخليج واتصال محمد علي بإمارات المنطقة وعمان في الفترة بين 1811 ـ 1840م».

ونظرا لهذا الكم الهائل من الوثائق والخرائط والرسائل، فإن المركز يستعد لاقامة معرض دائم يتكون من وحدات خاصة، واحدة عن تاريخ الإمارات، وواحدة عن المقارنة بين إمارات الماضي وامارات الحاضر بعد قيام الاتحاد، وتأثير ذلك على الحياة العامة من تعليم وزراعة وبناء، والثالثة مختصة بالخرائط الجغرافية، وهي عبارة عن أطلس للخليج منذ العهد اليوناني القديم، ثم الروماني، واخيرا الفترة العربية، فالبرتغالية والهولندية والانكليز الى مرحلة الاقمار الصناعية حيث حصل المركز على خريطة من الجو لدولة الإمارات.

ومن أبرز الخرائط الموجودة في المركز، وهي الأقدم ايضا، خريطة برتغالية تعود الى سنة 1502م. ويلاحظ فيها رأس الرجاء الصالح ثم منطقة الهند والخليج، بينما لم تكن أمريكا

معروفة في ذلك الوقت، كما هي الحال أيضا بالنسبة الى اليابان والصين.

وعن تاريخ الإمارات، تشير الوثائق في المركز الى ان بداية القرن الثامن عشر شهدت ظهور وحدات سياسية وقبائل تجمعت في أحلاف. وهاجرت من داخل الجزيرة العربية الى الشواطىء، ثم ظهرت زعامات بسبب رحيل البرتغاليين عن الخليج ووجود نوع من الأمن في البحر.

والرجوع الى مثل هذه الوثائق مهم جدا في التأريخ للمنطقة، حيث تتكون لدى الدارس صورة متكاملة بالاضافة الى المعلومات التي جمعتها المؤسسات العربية، كما ان الوثائق الموجودة في المركز استطاعت ان تكشف بعض المغالطات. وعلى سبيل المثال في كتاب «مختارات من وثائق حكومة بومباي»، الذي كتبه فرنسيس واردن، وهو عضو في مجلس حكومة بومباي، نظرية عن كيفية نشوء القواسم وبني ياس، وقد وضع كتابه هذا في العام 1819 بينما القواسم موجودون في المنطقة منذ أربعة قرون، فيقول ان رأس الخيمة جاء اسمها من خلال حادثة ملخصها ان احد الشيوخ جاء الى المنطقة وبنى خيمة على الساحل، فكان القادم من البحر يرى رأس هذه الخيمة. وإذا قرأنا في كتب ابن ماجد سنة 1390 نرى أنه ذكر رأس الخيمة بقوله: «ميناء من موانىء الساحل العربي في الخليج».

ويقول د. محمد مرسي عبد الله: «ان البعض ـ للأسف ـ اخذوا هذا المرجع وترجموه وتبنوا ما جاء فيه على انه حقائق، والذي

حصل أن رأس الخيمة موجودة قبل قرون عدة، لكن تشكيلها ككيان سياسي تأخر، ولذا حصل خلط بين وجود المدينة وتحول أهلها الى كيان سياسي له دور فعال في المنطقة».

وتشير الوثائق في «مركز الوثائق والدراسات التاريخية» الى ان فكرة الاتحاد ومحاولة جمع الامارات في كيان واحد، برزت في فترات متعددة، منها محاولة القواسم لتوحيد المنطقة، ومحاولة الشيخ زايد بن خليفة «زايد الكبير»، وهو جد صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. ولكن المحاولة الاولى ضربها الانكليز بالأسطول البحري، والمحاولة الثانية أوقفها الانكليز ايضا خوفا على مصالحهم التجارية.

فالخليج، بعد تكوين الدولة العربية، اصبح شريان التجارة الرئيسي من المحيط الاطلسي الى حدود الصين، حيث ظهرت البصرة بتاريخها الكبير وقصص السندباد البحري، ثم انتقلت التجارة الى مدينة سيراف على الساحل الايراني، وبعدها الى جزيرة قيس، وكانت كيانا سياسيا يسيطر على أغلب ساحل الخليج. ثم انتقلت التجارة الى مملكة هرمز في العام 1250م، واستمرت لغاية 1622م. إلا انها منذ العام 1507م وحتى 1622م كانت تحت الحكم البرتغالي، قبل ذلك كانت هرمز تسيطر تجاريا على القطيف والبحرين وجلفار والساحل الايراني الجنوبي وساحل الباطنة ومدينة قلهات. وبعد هذا الازدهار التجاري صار هدف البرتغاليين تحويل التجارة من أيدي العرب الى الأوروبيين، لحرمان العرب من الاقتصاد الذي كان ينعش الحياة الفكرية والثقافية والحضارية، حيث ظهرت القلاع والمساجد والمزارع والطرق

اعتمادا على التجارة. إضافة الى ان العرب كانوا يسيطرون على تجارة «الترانزيت» حيث كان أهل الخليج يأتون بالبضائع من الصين وشرقي أفريقيا، ثم ينقلونها الى البحر الأبيض عن طريق القوافل ثم الى اوروبا. ويقول الدكتور محمد مرسي: «ان البرتغاليين جاؤوا بوحشية الى المنطقة، فأحرقوا السفن العربية ودمروا القلاع ولم يسمحوا للعرب بالمشاركة التجارية، إلا ان الانكليز والهولنديين دخلوا منافسين للبرتغاليين، وساعدهم في ذلك الشاه عباس، فطرد البرتغاليون من جزيرة هرمز. اما عمان وقلاعها: مسقط وصحار وقلهات فقد حررها ائمة دولة اليعاربة على يد الامام ناصر بن مرشد اليعربي وتتبعهم الى شرقي افريقيا حيث قضى على قلاعهم هناك. ولذا كان لليعاربة دور وطني خطير في تحرير الخليج من النفوذ البرتغالي».

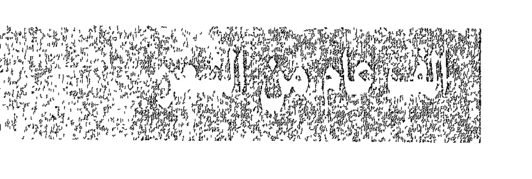
وتشير الوثائق والدراسات في المركز الى ان الانكليز وجدوا العرب نشطين في التجارة فتحول هدفهم من شراكة تجارية الى حملات تدمير كامل لمدن المنطقة مثل جلفار وموانىء ساحل عُمان. واستمروا صعودا الى الشمال، فعقدوا مع الإمارات الخليجية كلها «الاتفاقية المانعة» سنة 1892م. ومقابل حماية هذه الامارات طلب منها ان تتخلى عن علاقاتها الخارجية للحكومة البريطانية.

يقول الدكتور محمد مرسي عبد الله ان المركز اهتم في السنوات الاخيرة بفكرة انشاء متحف للوثائق «سيكون في جزء من قلعة قصر الحصن ليعكس صور الحياة في الماضي والنهضة المعاصرة، ووثائق قيام اتحاد الامارات العربية، كما شرع المركز في جمع

الوثائق التي كتبها الوكيل السياسي في الشارقة منذ العام 1823 حول القبائل على هذا الساحل، ويقوم قسم الترجمة باعداد هذه التقارير لتنشر قريبا». وقد كلف المركز الدكتور سلوت نائب مدير الارشيف في لاهاي باعداد دراسة عن القوى العربية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر اعتمادا على الوثائق الهولندية المتيسرة في لاهاي، وتأتي اهمية القرن الثامن عشر انه الفترة التي نشأت فيها الخريطة السياسية للخليج. وهناك دراسة اخرى يقوم بها الدكتور انطونيو داياس أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة لشبونة وهو يجمع للمركز الوثائق البرتغالية تحت عنوان «القوى العربية في الخليج ودولة اليعاربة»، إبان فترة الوجود البرتغالي (1507 ـ 1650).

والى جانب ذلك هناك الابحاث التي قام بها الدكتور محمد مرسي عبد الله والدكتور فروكا هير وادوارد هندرسون وابحاث سعيد سلمان عاذرة حول الابل والصيد بالصقور. كما صدر 32 مجلدا حول وثائق ووقائع دولة الامارات منذ العام 1972، وتحوي هذه المجموعة كل تصريحات المسؤولين.

ولاتنتهي نشاطات المجمع الثقافي في ابوظبي عند هذا الحد، بل تتوزع على عشرات الفنون والفروع المعرفية كالمسرح والسينما والفن التشكيلي بوجود فنانين ومتخصصين يقومون على اختيار المادة والعروض والدراسات الاكاديمية والابداعية التي تؤسس جميعها لمقولة ان هذا المجمع هو واحة لطلاب المعرفة ومصدر اشعاع ثقافي.■



ألف عام من الشعر

ذاكرتان في مكتبة عمران بن سالم العويس الخاصة: هو والكتاب؛ فحين تجول نظراته بين أعمدة وأركان المكتبة، تتقافز التواريخ والأسفار والصور والأسماء، لكنه لا يضيع معها في زحمة العدد، ولا تتردد يده وهي تمتد الى احد الرفوف: هذا تاريخ بلاد الشام، وهذا تاريخ الامارات وعُمان. وذاك تاريخ مصر والانساب والفقه والشعر. لكأن عمران العويس معني بأولئك المغمورين ممن لم تسعفهم الظروف للدخول في دائرة الضوء، من شعراء ومؤرخين وسلاطين ومغتربين وطلبة.

أوراق صفراء مثقوبة بحشرات الزمن، وحروف عربية مطبوعة في افريقيا والهند واليابان، ونسخ نادرة لمجلدات تاريخية وفقهية وأدبية موزعة على ثلاثة اماكن بسبب عددها الذي يفوق عشرة آلاف كتاب. ومع كل كتاب يقيم عمران العويس علاقة خاصة: للون والحرف والتاريخ وسنة الاقتناء والمضمون، كأنها صلة قربى او فصيلة دم واحدة بين الكتاب وعمران العويس..

نواة تعليمه بدأت على يد الاستاذ محمد بن علي المحمود في الشارقة، ونواة مكتبته بدأت بما جمعه والده سالم بن عبد الله

العـويس وتشـجـيع عـمـه علي بن عبد الله العويس، وابن عمهما الشـاعـر سـالم بن علي العويس، وقبلهم جده عبد الله بن سلطان العـويس. وهؤلاء اهتـمـوا بالثقافة وجمعوا عددا كبيرا من الكتب التي هي اليـوم نادرة، وبعـضـهـا من المخطوطات. ويرى عمران العويس «أن ذلك الاهتمام والتشجيع للثقافة والعلوم أعطى الابناء القـدرة على تأسـيس مـثل هذه المكتـبات الضخمة التي تنتشر بين أسر كثيرة في الامارات، لها نفس الاهتمامات منذ القدم».

واللافت في مكتبة عمران العويس ذلك الحضور الهائل لشعراء عُـمان الذين لا نعـرفـهم، خـصـوصـا ممن عاشوا في فترات قديمة تـعـود الى مـا قـبـل الالـف عـام. ومـعـظم هذه الدواوين كـانت مخطوطات قبل ان يحققها في الستينات المهتمون بالشعر العماني، أمـثال عضو المجمع العلمي في دمشق الدكتور عز الدين التنوخي. ومن يطلع على هؤلاء الشـعراء يجد فرصة كبيرة في معرفة أجواء الشـعر القديم خاصة شعراء الدولة النبهانية، أمثال أبو بكر احمد بن سـعـيـد الخـروصي العماني المعروف بالستالي نسبة الى قرية سـتـال. هذا الشـاعر ولد العام 1164 ميلادي في وادي خروص الذي اشـتـهـر بالعلم والشـعر، وانتقل في ما بعد الى سمد نزوي عـاصة عُـمان في الدولة النبهانية قبل حوالي ألف عام، وقد يصدم القـارىء القـريب من الشـعر بقوة هذا الشاعر وقدرته على رسم صـوره وتزاوج مفرداته بما يقترب من غنائية الشعر الاندلسي من جهة، وقوة الشعر العباسي من جهة اخرى.

واللافت ايضـا ان بعـضـاً من ملوك الدولة النبـهـانيـة كانوا شعراء، ومن بينهم الشاعر السلطان سليمان بن سليمان النبهاني

(توفي في العـام 1510 مـيلادي)، وهو احد ملوك عُـمان الجبابرة كما يصـفـه محقق ديوانه عـز الدين التنوخي، وعرف بقسوته في الحـروب والغزوات، ورقته في الشعر وخصوصا الغزل، الذي كان ابرز مضامين ديوانه، وقد كان الشاعر الملك من أبرز رموز الدولة النبهانية التي انتهت بدخول البرتغاليين الى المنطقة.

ومن خـلال سلسلة الكتب النادرة الموجـودة في مكتـبة عمران العـويس، يلاحظ عـدم انقطاع الحـضور الشعري في عُـمان. فكل فترة تتصل بالأخرى من خلال تواريخ الدواوين وأسماء الشعراء، حتى الفترات الحديثة السابقة، على الرغم من ان الشعر تحول فيها الى مـواعظ وحكم من خـلال الداعـيـة العلامة ناصر بن سالم بن عديم الرواحي العبسي (توفي العام 1918)، وهو شاعر قاض كان مـقيما في زنجبار. وكذلك الشيخ العلامة الفقيه نور الدين عبد الله بن حميـد السـالمي، وهو مـؤرخ كتب في الفقه والتاريخ، واما ابن زريق (العماني وليس البغـدادي)، فـهـو شـاعـر مؤرخ له كتاب «الفـتح المبين في سيرة السـادة البـورسعيديين». وقد ترجم كتابه هذا، الكاتب الانجليـزي برسي بادجـر بعنوان «الائمـة والسادة في عمان».

وقـد شـهـدت فترة مـا بين الحـربين العالميتين ظهور عدد من المهتمين بالشعراء في عمان منهم ابراهيم بن قيس الحضرمي، وقد كـتب على النسـخـة النادرة التي يقـتنيها عمران العويس: « «هذا ديوان السـيف النقاد من نظم الامام المقدام والبطل الهمام ابراهيم بن قـيس رحمة الله عليه، طبع على ذمة الملتزم سليمان الباروني، وكل نسـخـة لم تختم بهذا الخـتم تعد مختلسة». والباروني هو

أديب ليبي قدم الى عُمان وانتقل في اواخر حياته الى بومباي في الهند وتوفي هناك سنة 1940. ومعظم هذه الدواوين اصدار وزارة التراث العمانية. الا ان الغريب هو ديوان الصوفي العماني حيث كتب على غلافه الخارجي انه طبع في أوساكا في اليابان عام 1937، على نفقة السلطان تيمور بن فيصل، الذي كتب مقدمة الديوان واثبت في نهايتها ختمه.

ولم تكن الهند مصدر طباعة الكتب العربية الاسلامية فحسب، وانما كانت أيضا تشهد تحقيق بعض المخطوطات التاريخية والدينية. وقد عاصر عمران العويس تلك الفترة عندما ذهب في العام 1950 الى الهند لاكمال دراسته، ونزل في بيت ابن عمه الشاعر سلطان بن علي العويس الذي كان يقيم هناك مع عدد كبير من أبناء الجالية العربية. وكان مجلسه كما هو اليوم يرتاده الشعراء والأدباء من العرب والهنود.

ويقول عمران العويس: «كانت تلك الفترة مهمة بالنسبة لي، حيث تعرفت الى عدد من المهتمين بالثقافة هناك، وتابعنا المطبوعات والمكتبات والتأليف، وجالسنا اهل العلم من رعايا الدول العربية والخليج امثال السيد عبد المنعم الزواوي، وهو شخص مثقف ومهتم بالأدب، والسيد أحمد الشبيلي سكرتير السلطان تيمور بن فيصل سلطان عمان، ومن اليمن احمد فريد ومحمد علي بجاش، إضافة الى اهل الامارات واصدقاء البلد».

أما الكتب التي طبعت وحققت في الهند في تلك الفترة والموجودة ضمن النوادر في مكتبة عمران بن سالم العويس فمنها «نسب

عـدنان وقحطان لأبي العباس بن المبرد»، حققه عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي. كما يعـتبر الدكـتـور زاهد علي اول من حـقق ديوان الشـاعـر ابن هانىء الاندلسي، وهو أستاذ العربية في حيدر أباد، حيث قدم الكتاب كرسالة دكتوراه ناقشتها جامعة أكسفورد سنة 1932، ثم طبع الكتـاب في القـاهرة. ويقول عمران العويس «ان الشـاعـر ابن هانىء هو من قـبـيلة الازد عائلة المهلب بن ابي صفرة، وهو قائد مشهور في العهد الأموي واصله عماني».

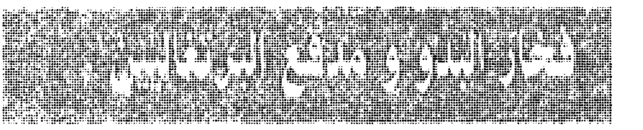
واضـافـة الى اقتناء الكتب، يهتم عمران العويس كثيرا بأنساب الشـعراء والمؤلفين، فيقول: «اول كتاب فرحت به كثيراً، وكان من اقـتنائي الخـاص هو ديوان ابن دريد، حـققه في الهند أستاذ اللغة العـربيـة بدر الدين العلوي (هندي، ربما كـان من اصل عربي)». ويرى عمران العويس «ان ابن دريد المولود سنة 728 ميلادية هو من منطقـة «قدفع» في الفجيرة اليوم، وعاش حياته كلها في البصرة في خلافة المعتصم، فعرف أنه بصري حيث تعلم ونشأ هناك، بينما كـان من النازحين من اهل المنطقـة الى العـراق، وخـصـوصـا جده مالك بن فهم».

أمـا المطابع الهندية التي طبـعت الكتب العـربيـة فـقد كانت في بهوبال، وأمـرتسر ودهلي، حـيث طبعت المطبعة الانصارية التابعة لدار العلم في دهلي كـتـاب «المكتـوب اللطيف الى المحـدث الشريف» للعـلامـة أبي الطيب شمس الحق في العام 1890 ميلادي، وكتاب «مطالب ظفـر اللاضي بما يجب في القـضـاء على القـاضي» في علوم القـضـاء والقوانين والاحكام، وطبع في مطبعة سيد محمد صديق حـسن خـان بهادر سنة 1294 مـيـلادية في مدينة بهوبال وسط

الهند.

وعلى الرغم من ان مكتبة عمران بن سالم العويس الخاصة لم تفهرس بعد ولم يحص عدد عناوينها، الا انها مرتبة بشكل واضح من خلال الاقسام: تاريخ، فقه، علوم، تراث، شعر، مخطوطات، فنون، لغة. والأقسام الاخرى مرتبة على اساس الجغرافيا: عمان والامارات، الجزيرة العربية، مصر، بلاد الشام، المغرب العربي، العراق. الى جانب المطبوعات الاجنبية الخاصة بتلك الأقسام. ومن أبرز الكتب الخاصة بتاريخ عمان «تحفة الاعيان بسيرة اهل عُمان» للسالمي (1910)، وكتاب «الانسان» للعوثبي الصحاري سلمة بن سالم. وفي تاريخ مصر كتاب «تقويم النيل» لأمين سامي باشا، وهو من الكتب النادرة وطبع سنة 1936، وفي التاريخ ايضا كتاب «دول البحار حقائق واخبار» للميرالاي اسماعيل سرهنك، اضافة الى عشرات الكتب التاريخية الاساسية للطبري وابن كثير وابن الأثير وابن عبد ربه، ومنها «معجم ما استعجم» للبكري الاندلسي، وقد ورد فيه ذكر دبي ودبا، وفرق المؤلف بينهما، حيث نقل عنه «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان».

وعلى مدى ثلاثين عاما استطاع عمران بن سالم العويس، ان يجمع هذه العناوين ليشكل منها ذاكرته في مختلف مجالات الحياة، انها الذاكرة الممتلئة التي تطل على مشارف الستين عاما بنظرتها الثاقبة وهدوئها العميق.■



فخار البدو و مدفع البرتغاليين

حول عيون الماء في منطقة «خت» في رأس الخيمة يتجمع الناس، بعضهم يبحث عن العلاج في هذه المياه الكبريتية الطبيعية، وبعضهم الآخر يبحث عن النزهة في منطقة اشتهرت بجمالها البكر الذي يمزج بين الريف والصحراء. ومن البعيد ياتي البدو الرحل حاملين فخارهم القديم يبحثون عن الحياة: رز، شاي، تمور، أدوية.. واستراحة بين العشب والماء.

يخرج لهم الشاب محمد ناصر يوسف من سيارته القديمة: «كل ما تحتاجونه عندي، والثمن بعض فخاركم القديم». يفرح البدو لهذه المقايضة، ويحزنون ايضا. فالأواني الفخارية هي مساحتهم اليومية واستراحتهم في الهجير، لكن على اي حال «خذ، هذه دلة قهوة، وهذا اناء لشرب الماء». ويحتضن محمد ناصر يوسف ذلك الفخار اللين القريب من الجلود القاسية، ويعود الى الشارقة.

مضى على هذه الحكاية ثلاثون عاما ومحمد ناصر يوسف

يقلب الفخار وكأنه مرآة حياته، يرى فيه هوايته الاولى وبحثه الأول عن القديم الذي غرسه ابوه في روحه، فراح يجوب الارض بحثا عن خنجر، سيف، قربة، طابع، حجارة، مذياع، ساعة، نحاس، صورة.

هواية بالوراثة، بدأت بطابع بريدي صغير، وانتهت بمدفع برتغالي طوله متر ووزنه مئات الكيلو غرامات. هذه الرحلة استغرقت اربعة عقود من عمر هذا الهاوي الذي يطير الى حيث توجد المادة القديمة: «لاشيء احب إليّ من هذا العالم الذي يحملني الى رائحة القديم مهما كلفني ذلك».

في العام 1958 كانت البداية. بقالة صغيرة يشتري صاحبها المعدنيات والعملات والاثاث القديم، بينما ولده محمد يتابع اهمية هذه المواد لدى والده. وبعد عشر سنوات من الخبرة استقل محمد ليعمل بنفسه في مكان آخر... انها جرأة مبكرة، ومعرفة وراثية يتذكرها اليوم وهو يرى ابنه احمد، وهو الآخر من هواة جمع التحف والصور والطوابع القديمة، فيقول: «في الستينات كان من الصعب علي ان اشتري المزيد من الادوات القديمة، خصوصا التي كانت مستعملة في الامارات، وكنت أتألم وانا اشاهد الاجانب يحملونها الى بلدانهم. والآن أنا في غاية الندم على ضياع تلك الثروة الوطنية، وقبل ايام اتصل بي ابني من لندن ليقول لي انه حصل على سيف عماني قديم. قلت اشتره ولو بأغلى ثمن».

بين جملة واخرى يتوقف محمد ناصر عن الحديث معلنا اسفه على تلك الايام، ويقول: «اكتب نصيحتي للشباب: الاهتمام بكل ما

يتعلق بالماضي». ويكمل شارحا: هذه بندقية «صمعة» عمرها مائة عام، وهذا مدفع برونزي كان يستعمله البرتغاليون في حربهم ضد العرب، تم ترحيله الى لندن وجئت به من هناك، وهذه بندقية «أم فتيلة» صاحبة الحكاية المذهلة في هذه المنطقة التي شهدت حروبا عديدة قبل مئات السنين، فكان الناس يخترعون لها البارود من شجرة «الاشخر» على شكل «بودرة»، واذا لم يجدوا الرصاص، يجمعون العملات الفضية في مصهر ويعيدون تشكيلها الى رصاص، كانت هناك صناعات محلية عديدة: اقفال وخناجر وادوات منزلية وفخاريات.

ومن بين عشرات التحف والموجودات القديمة يبدي محمد ناصر يوسف اهتماما ملحوظا بالفخار. ما هي قصته؟ «الفخار صناعة محلية عرفها اهل الامارات وخصوصا رأس الخيمة وجبالها الغنية بالطين الخاص بصناعة الفخاريات، حيث يطبخ هذا الطين في تنور خاص ثم تشكل المادة حسب الشكل المطلوب وتوضع في فرن آخر لتتماسك جيدا، انها واحدة من الصناعات المحلية التي ازدهرت قبل مائة عام. وأثمن شيء عندي انني حصلت على هذه الفخاريات من البدو الرحل الذين يأتون الى عيون الماء في رأس الخيمة. كنت اذهب الى هناك مع جماعة من الاصدقاء بسيارة جيب حاملا معي السكر والرز والطحين والمأكولات لأحصل في مقابلها على آنية فخارية كنت اعرف ان عمرها اكثر من مائة عام. يومها كنت شابا في العشرين، ولكنني كنت احمل خبرة اكبر من تلك السن».

وليست هذه الوسيلة الوحيدة التي حصل فيها محمد ناصر

يوسف على الفخاريات.. يقول: «في أواخر الستينات ايضا، كنت اذهب الى خور الشارقة، عندما كانت الحفريات تتواصل لتوسيع الخور، وهناك كنت اقضي ساعات طويلة ابحث عن الفخار المدفون، وفعلا عثرت على عدد من القطع السليمة التي لم تتأثر بادوات الحفر والمكائن الضخمة، وتفسيري لوجود هذه القطع في الخور هو ان الناس كانوا يلوذون بالخور من حر الصيف، ومعهم الاواني الفخارية لحمل الماء واحتياجات اخرى. وكانت تسقط في الماء او تنسى في اثناء عودتهم الى منازلهم ثم دفنها الزمن تحت الرمال. انني اذكر جيدا ذلك الخور الضيق حيث كانت البنات يبحثن عن القواقع ونجوم البحر، ونحن نلهو بألعابنا الشعبية على الساحل».

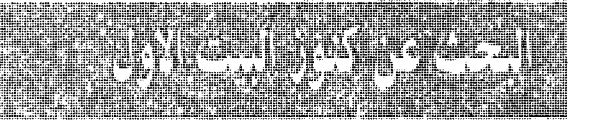
في العام 1948، كان الصغير محمد ناصر يوسف يدرس القرآن على يد الشيخ محمد بن علي المحمود في مدرسة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي. المدرسة من سعف النخيل في «فريج» الشيوخ، والاطفال يجلسون على الحصير في صف واحد منتظم: «كنت اقرأ وانا احلم بكنز، هكذا سمعت هذا الاسم من الناس لكنني لم اعرف ما هو هذا الكنز». وهل وجدته؟ يقول محمد ناصر: «نعم، انه اجمل هدية سأقدمها الى متحف الشارقة عندما يكتمل ويتم افتتاحه، فهذه الفخاريات ليست ملكي، وانا استجيب لدعوة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي الذي دعا الى جمع هذه المواد على انها ثروة وطنية يجب الا تخرج من الامارات».

ولا يتردد محمد ناصر في الاستجابة لعدد كبير من الهواة وهم

يطلبــون منه مــادة مــعــينة «اذا كان بالامكان». لقد اصبح الهواة، يأخذون منه العملات والطوابع. ويستدرك وكأنه نسي شيئا فيقول فجأة: لدي عملات فضية لــ 80 بلداً، وطوابع ذات صور لــ 170 بلدا، و 170 علما، وعــملات ورقية لــ 120 بلدا، ومجموعة كبيرة من الصــور القديمة. وعندما يتحدث لا يستطيع المتابع ان يصغي جــيــدا، فــهــذه الاكــداس الهائلة من التــحف فاضت حتى لم تعد صــالحــة للحــفظ لكثرة تكرارها، ولذا تحول قسم من الهواية الى التــجارة. ويقول: «لاتعجب اذا قلت لك ان لدي مجموعات لاتوجد حتى في المتاحف المحلية».

ومــا هــذه الصــورة الملونة التي تبــدو ألوانها زاهيــة في جــيب الصدر من الجهة اليمنى، هل تسمح؟

«انه دفتر تلفــونات. نعم، جئت بمــجــمــوعة اوراق وقصصتها بشكل صــغير متناسق وغلفتها بعلم الامارات، ووضــعت الخطوط المناسبة،أليس هذا افضل من شراء دفتر عليه شعار لشركة او علم لدولة اخــرى؟ هذا علم بلدي أبرزه امــام اي شــخص عندما اجوب العــالم، واصادف صديقا او اي شــخص اسجل رقم هاتفه.. تحفة أليس كذلك؟!». ■


البحث عن كنوز البيت الأول

البحث عن كنوز البيت الأول

لكي لا تضيع معالم البيت الاول في مهب الحداثة، حملت فاطمة المغني فخارها ودفتر الحكايات القديمة الى بيتها الجديد. في الدور العلوي من المنزل غرفة خاصة، تشير اليها فاطمة المغني بكثير من الحديث. هناك يرقد كنز عتيق.. كنزها الذي ورثته عن اهلها، بغباره ولونه ورائحته الاولى. لكان تلك الغرفة خيمة المنزل الكبيرة، التي تفرش ظلالها على ضياع الحاضر وتعب البحث عن الهوية.

وعندما بدأ الناس يهجرون بيوتهم القديمة الى البناء الجديد، الابيض الشاهق، المزين بعلب الطراز الحديث، رموا في طريقهم الأسرة والجرار والفخار والصور واطباق الخوص. يومها اعلنت فاطمة المغني صرختها احتجاجا على هذا القتل الجاهل للتراث. وفرشت غرفتها ليستلقي ذلك المتعب من عناء السنين؛ سرير اسود متهالك، وفخار لمنزل اماراتي من زمن ما قبل النفط، وصور بالكاميرا الاولى، واشرطة كاسيت بأصوات كبار السن وهم يروون لها حكايات وقصصا عن الماضي؛ المرض والفقر،

ومعارك البرتغاليين والانكليز، والغوص والزراعة والسفر..

كانت البداية بعد الشهادة الثانوية، لتنطلق بداية اخرى مع افتتاح مراكز التنمية الاجتماعية في الامارات. وكان من نصيب تلك الفتاة المحبة للتراث ان تتولى مركز خورفكان في العام 1979. يومها كانت المرأة جليسة البيت، لكن فاطمة المغني فتحت مع اولياء الامور حواراً شاقا لاقناعهم بالتحاق النساء بالمركز: تطرين، وخياطة، وصناعات يدوية من سعف النخيل، وشباك صيد، وحياكة السدو واعمال اخرى وضعت امام ربات البيوت اللواتي بدأن الانخراط بالمركز، لتبدأ تلك العلاقة الحميمة كأسرة واحدة تعمل في إحياء تراث الجدات في مرحلة القرية والمدينة الصغيرة الفقيرة.

يومها، تقول فاطمة، «لم اكتف بشهادة الثانوية العامة، فقررت مواصلة دراستي عن طريق الانتساب الموجه، وحصلت على بكالوريوس تربية وعلم نفس. هكذا افادتني دراستي في اقامة علاقة استثنائية مع عضوات المركز اللواتي اصبحن قادرات على اتقان الحرف اليدوية القديمة. بينما كنت أواصل الجمع والبحث عن القديم، فتحولت الهواية الى شغل لا اغفل عنه يوما واحدا».

حملت فاطمة المغني جهاز التسجيل ودارت على الغرف المظلمة التي ينام فيها اولئك الطاعنون في العمر والحزن والذاكرة. اخذت منهم القصص والبطولات والعادات القديمة ومراسم الزواج وتحفيظ القرآن ورحلات الغوص، وقدمتها الى مركز التراث

الشعبي لدول الخليج في قطر، حيث اصبحت عضوة في هذا المركز تقوم باعمال ودراسات ميدانية مع فرق اخرى في دراسات تراثية خاصة بالامارات، ومنها الفريق الذي قام بدراسة مرحلة الميلاد في دولة الامارات: «طقوس وعادات وتقاليد» مع الدكتورة موزة غباش.

تقول فاطمة «قمنا بتكوين جماعة التراث باسم «جماعة الدراسات الشعبية» برئاسة الدكتورة موزة غباش وعضوية 16 امرأة من هاويات جمع المواد القديمة والحكايات الشعبية، حيث سنقوم بانجاز مختلف الابحاث التي تطلبها منا اية جهة، ولدينا الخبرة الميدانية». ويصل حب فاطمة المغني للتراث الى درجة العتب على بعض المؤسسات التي لا تدعوها للاشتراك في عمل تراثي، اذ لاشيء لديها خارج الجهد والعمل المتواصل، بين شؤون الامومة والبحث عن القديم ومركز التنمية الذي تعتبره بيتها الثاني: «اغلب المنتسبات من كبيرات السن، وهؤلاء يحتجن الى رعاية خاصة، مع احساسهن بامكان العمل وانهن لسن معاقات. ان تشجيع هؤلاء على العمل افضل من القول لهن: اذهبن، انتن لا تفدن في شيء، ومكانكن المنزل. هذا قتل حقيقي لهن».

وهي تتابع هذه الاعمال، لا تنسى فاطمة المغني جدها الذي غرس فيها حب التراث والفولكلور: «دفعني الى الارض والنبات والاغاني القديمة والاهازيج، ومن خلاله صرت احب كبار السن. هؤلاء الكنز الحقيقي الذي ننهل منه تفاصيل الهوية. ووالدي

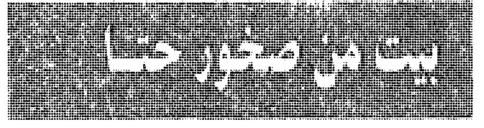
ايضـا كـان من اوائل الذين تعلموا في الكويت وجمع بين الدراسة والعمل هناك. وبعدما عاد الى الامارات واصل التدريس في مدرسة سـيف اليـعـربي في كلبـاء». وقـد يكون صـحيحا ان المرأة احبت الركـود في الامارات، الا «انني لا اعرف شيئا آخر غير العمل، وفي العـمل لا اعـرف شـيئا آخر غير التراث بجميع اشكاله، حتى انني انتـهـز فرصة الاجازات والعطلات لاقوم بالبحث الميداني، وازور هواة جمع التحف والرواة، ولدي علاقات طيبة معهم».

وتروي فـاطمـة المغني حكاية تأثرت بها كثيرا وجعلتها تعتني كـثيرا بأي مـادة قـديمة فخارية او معدنية أو خشبية: «ذات يوم عـرض احـد الاشـخـاط «مندوسـاً». وهو صندوق خشبي مطعم بالمسـامير الفـضـيـة كان يستخدمه اهل الامارات والخليج عموما كـخزانة للملابس والحلي، فجاءه زائر اجنبي وقدم له مبلغا مغريا مقابل هذا الصندوق واشتراه. وبعد فترة جاءه زائر آخر باحثا عن الصندوق او مـثـيل له، ودفع اضـعـاف المبلغ الاول. يومـها عرف ذلك الشخص اهمية المادة القديمة، وعرفت انا ايضا».

وهـي تشـير الى الادوات المنزليـة القـديمـة، تود لو تمسك بيدها ذاكـرة الماضي، لو تفتح الصورة القديمة المعلقة على الجدار وتدخل فـيـهـا: «هذه خـورفكان القديمة، هذا ساحل الميناء، وهذه قوارب الصـيـد الاولى التي اخذتها الامواج الى البعيد ولم يبق منها سوى هذه الصـورة التي رسـمها فنان مجهول. وهذه الجرة، او الجرار التي تقف على شكل الاواني المسـتطرقة، كانت للماء الذي يحصل

عليه الاجداد كحفنة من ذهب. اما أطباق سعف النخيل فكانت تتوزع على عشرات الاشكال والاستعمالات كصحون واغطية للطعام، او لحفظ التمور، او مهفة (مروحة) لتحريك الهواء امام الوجه مباشرة».

بعضهم لم يأخذه المكيف والاسمنت الى متاهات الجمود والانقطاع عن الماضي، ومنهم فاطمة المغني التي اودعت نبضها في غرفة مزينة برائحة الجدات، في الدور العلوي من المنزل.■


بيت من صخور حتا

بيت من صخور حتــا

بين شـفـافـيــة الروح وقسوة الحجر ألفة عجيبة تتحقق هناك على مـرتفع صخري في اطراف مدينة حتا، فبعد نحو ١٠٠ كيلو متر من دبي يبـدأ مـزيج من لون الهواء والارض والافق يملأ فراغا موحشا في العين، لـكـن ذلك الجمال المفـعم باللون الاخضر وحس القـرية البـعـيـدة عن الضــجـيج، سرعان ما يتصاعد في اتجاه الدهشة بينما علي السيد يشرح مشروعه.

قـبل الدخـول في اجـواء مـدينة حتا وشوارعها، هناك شارع ترابي يوصل الى مرتفع فوقه قلعة.

هـكـذا يـتراءى لـلعين للوهلة الاولى، حـيث اكـوام الصـخــور والجدران المرتفعة ومواد البناء الاساسية.

انها تجـربة فريدة، لا سابقة لها في الامارات؛ بيت من صخور الجـبـال المحـيطة بقطعـة من الارض بمساحة 800 × 800 قدم مـربعـة. قـبل سنتين لم يكن سـوى ظلمة وفراغ مجدب، واليوم تتـصــارع الصــخـور بألوانها العشرين، من الاصــفـر الفاتح الى الأســود الـداكـن، وهي تصطف بتماسك في محاولة لفـرض نظام

الشكل الانيق والمقبول.

بيت من صخور حتا.. اين ذهب الطابوق والحديد والخشب ومواد البناء الحديثة المستوردة؟ «لا علاقة لي بها». يقول علي السيد: «انني انتمي الى هذه الارض.. وبيتي ايضا. لماذا لانستثمر بيئتنا؟ ولماذا نبحث عن طابع آخر لحياتنا ولدينا الكثير من معطيات هذه الارض؟ ان حتا مدينة جبلية فيها عشرات الانواع من الصخور البركانية والرسوبية المسطحة والمدورة والصغيرة والكبيرة وبامكاننا بناء البيوت هنا من هذه الصخور لتوحي بطابع المنطقة ولتنسجم مع لون الأرض والافق المملوء بقمم الجبال البنية والسوداء. انا بدأت بذلك. وعلى الرغم من الصعوبات، سأنجز هذا المشروع المزيج من الفن والبناء والفائدة».

في رحلة الاصدقاء بين وديان مناطق حتا الواسعة، اصطدمت سيارة علي السيد بصخرة في طريق غير سالك، فنزل وأخذها حيث لفتت انتباهه بلونها وشكلها.. وولدت الفكرة. كانت الفكرة ان يستخدمها في إعداد طاولة صغيرة. الا ان تلك الفكرة اتسعت بحجم بيت في الحلم وجد مرتكزاته على الارض. «قال لي مهندسون واصدقاء، ان هذه الصخور تصلح لبناء منزل». وبدأ صراع من نوع آخر؛ علي السيد وعمال ثلاثة وسيارة لنقل الصخور من الجبال الى الموقع.

«كان ذلك في شهر مايو (أيار) العام 1992. وكانت تلك الصخرة هي حجر الاساس. ومازالت». وفي جولة بين زوايا الموقع والمناطق المحيطة به، يخرج الزائر بحقيقة ان هذا المشروع ليس

وليد المصادفة، وانما هو ثمرة علاقة طويلة الامد مع المكان، بحيث توصل علي السيد الى ادق التفصيلات، وهو الذي يتردد الى هذه المنطقة منذ نحو 25 سنة. وحتا معروفة باجوائها الباردة نسبياً والمختلفة عن بقية مدن الامارات، في موسم الصيف تحديدا، نظرا لارتفاعها ولكثرة التشجير والاحزمة الخضراء فيها، ولوجود اكثر من عشرين سدا لخزن مياه الامطار النازلة من الجبال، كل هذه الاسباب جعلت من هذه المدينة الهادئة منتجعا وملاذا للناس اوقات العطلات والمواسم المناسبة للرحلات.

في المساحات الخارجية للمنزل طاولات صخرية من كتلة واحدة منبسطة بقدرة مذهلة، ومسندة الى صخور دائرية هي عبارة عن حيوانات عمرها ملايين السنين، كانت غذاء للديناصورات، ثم تحجرت لتكون بهذه القسوة والدقة والاستدارة.

اما الداخل المنجز حتى الآن، ففيه زوايا مستوحاة من العمارة القديمة في مصر والعراق، في تزاوج بين الاهرام والجنائن المعلقة، اشكالها لا تتماثل تماما مع تلك العمارة لكنها تستوحيها ودونما قصد، بينما تقابل تلك الزوايا مساحة مرتفعة في مستوى النوافذ الواسعة المطلة على حتا، للمشاهدة في وضع الاسترخاء.

لكن السؤال: لماذا كل هذه التعرجات والانحناءات في غرفة واحدة مساحتها 160 مترا مربعا؟ يقول علي السيد: «لا وجود لتخطيط مسبق، لانني اخاف من التخطيط ان يوقعني في قيود لا ارغب فيها، الارتجال هو سيد الفكرة لانه ابداعي النتائج. ولم

ارجع الى اي مصادر في مجال البناء والعمران. هناك انانية ايجابية في هذا المشروع وليس غرورا عندما اقول انني اتمنى ان اعمل شيئا خاصا بي مائة في المائة من دون الاعتماد على أي شيء خارجي باستثناء الضروريات. ومنها مكيف الهواء والاضاءة، مثلا، على مستوى الشكل من الاعلى، ليس هناك ما يدعو الى توحيد السقوف، وانما هي كالاواني المستطرقة، كل سقف بشكل أو بمستوى ارتفاعي يختلف عن الآخر، بينما في الداخل لا وجود للاشكال المربعة والمستطيلة، وانما اشكال مثلثة وبزوايا وانحناءات مقصودة، اما الابواب فهي ليست تقليدية المكان وانما تأتي في زوايا منحنية بعيدة من النظرة الاولى، كما هي الحال في بيوتنا القديمة حيث يبدأ الباب بعد مساحة امتار مربعة فارغة كمدخل وكحاجب عن النظرة الاولى الخارجية».

البحث عن الصخر كالحفر في الصخر. ففي كل فرصة يذهب علي السيد الى الجبال بحثا عن النوعية المطلوبة من الصخور والأحجار، وهناك يبدأ صراع من نوع آخر، اذ تخرج الافاعي بأنواعها واحجامها من تحت الصخور.

ولأن الجهد فردي والبحث مباشر وبطرق يدوية فان خطر الافاعي يبقى قائما. «لا اقترب منها اذا هي لم تقترب مني. ولا احاول قتلها. فقط احمل الصخور واذهب». وعندما تأكد علي السيد تماما من ان هذه الصخور صالحة للبناء بدأ الخيال يعمل عمله، اذ لاوجود لأي خطأ او نسيان لمادة معينة او تمديدات كهربائية خفية، وكل شيء من الحجر.. ما عدا السقف.

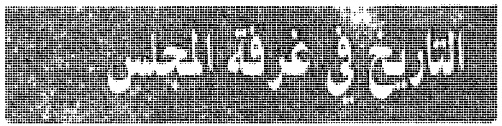
يقـول علي السـيـد: «بعـد جـولات عـديدة بحـثا عن الصخور المناسـبـة للبناء، وجدت انها موجودة في احدى عشرة منطقة فيها اكـثـر من 20 لونا من ألوان الصـخـور، وقـد نفـذت حـتى الآن مسـاحة سكنية صالحة متعددة الكتل المساحية، بحيث تجد فيها مجلسـاً وغـرفـة نوم وحماماً بطريقة تلقائية تعتمد العنصر الفني وليس الجـدول الزمني. مـثـلا، انا لم احـدد زمنا لانجـاز البـيت بـالـكـامـل، لان الفن لا يحدد بالزمن، اضـافـة الى انني المهندس والـكـهـربائي والمشرف مع ثلاثة عمال فـقط. يسأل البـعض عن التكلفـة فـاقول انها نحو 20 في المئة من تكلفة بناء بيت عادي عن طـريق المقـاولين، حـيث لم اسـتـخـدم سـوى الاسـمنت والرمل ومحروقـات السـيـارة التي تنقل الصخور. اما الاثاث فهو قديم، وتقوم فكرته على اساس التوافق مع الشكل العام.

ومن الطبـيـعي ان تفرح الاسرة ببناء بيت جديد ذي مواصفات سـيـاحية، الا ان اسرة علي السيد ليست سعيدة تماما، وهي تنتظر النتـائج لان الصـورة لا تزال غـامضة: «الانسـان عندنا تعلم على الجـاهز والسـهل، وهذا المشروع لا يفهمه من لا يحبه، ونحن امة تربي العـيب، كل شيء عندنا عيب، وانا نسفت جدار العيب، وقلت: لاحـاول عمل شيء جديد، وبعد ان يكتمل البيت سيرى الجميع كم هو جميل وكم من الجـهد بذلته حتى قام. واعني بالعيب الخجل مـن الابداع والترفع عن العـمل مـبـاشرة، مـثـلا، في هذا المشروع سأنشىء غـرفـة خـاصة مبنية من صخور العالم، كل بلد ازوره اجلب منه صخرة، غرفة عالمية: تخيل نفسك في غرفة احجارها من كل دول العالم (غرفة الامم المتحدة).

وعلى الجانب الآخر هناك اربعة اشخاص اعجبوا بالبناء وفكرته، وطلبوا مني تقديم فكرة عن التجربة، وبدؤوا فعلا التنفيذ في مدينة حتا، التي أتمنى ان تكون بيوتها كلها من الصخور. وبذلك تكون حتا ابنة بيئتها تماما، كما هي الحال في مدن عالمية عديدة تعتمد على موجوداتها الطبيعية».

ومن خلال التجربة، فان الصخور تمنح المكان طقسا باردا، بينما تزداد هذه البرودة مع وجود حزام اخضر حول المنزل، وهو ما قام به علي السيد الذي ملأ المكان المحيط باللون الاخضر وهو يجني ثمار عشرات الفواكه والخضار في العام.

هذا الخيال، وهذه الارادة والقدرة على التنفيذ يقول عنها علي السيد انها مرتبطة بالطفولة «حيث كان بيت الوالد يحتوي على 50 غرفة، وهو سوق الذهب الجديد في دبي اليوم، كان البيت يطل على البحر، وكنت ألعب كرة القدم فيه، حيث الساحات الواسعة، والطراز المعماري القديم بالسلالم والسطوح والغرف والحوش والاضاءة الخافتة والابواب المخيفة. هكذا كبرت الفكرة معي ونقلتها اليوم الى بيت من صخور حتا. وفي المستقبل سأقوم بعمل مشروع رياضي هنا، كله من الصخور، لاستقبال هواة الرياضة اليومية في حتا والمناطق المحيطة، لن احدد انجاز هذا المشروع بزمن، لان الفن ضد الزمن». ■


التاريخ في غرفة المجلس

بيت قال وهذه القصيدة هذا وسائرهم حتى اذا كنت قريبا
الحي فاقام حتى حين علم البين ثم اتى اهله وقال هذه القصيدة اولها
قوله قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل [illegible] الا
سلام يجود بينها ورواها ابو عمرو قال ابو عبيدة انشدنا ابو
الفضل العرني [illegible] واهل ترك ومارد هما موضعان معروفان
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل
قال ابو سعيد هذا مثل ذلك يقول واذكر يوما على ظهر الكثيب
[illegible] بها والكثيب [illegible] قال الاصمعي [illegible]
[illegible]
اليمين وقوله لم تحلل اي لم تستثن قال اي حلفت [illegible] قال ابو
سعيد تعذرت علي ولم تمكني وحلفت ولم تستثن ويقول تبعد
احيانا وتختل احيانا تبدل ونصب حلفة على المصدر وقال
افاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي
قال ابو سعيد [illegible] ذا دلال ومهلا اي اتقي بعض الاتئاد وقال
تدللها انها قالت لا احبني وهي تعلم انه يحبها وكان تدللا عليه
ابو عبيدة ازمع عليه واجمع عليه واعزم عليه بمعنى والصرم القطع
وقوله فاجملي اي اجملي في صرمي ولا يكن ذلك في جفاء وعلى [illegible]

التاريخ في غرفة المجلس

كتل معدنية، ورقية، ولفافات تالفة يضعها ابراهيم الهاشمي في خرق بالية ويشد عليها بخيوط ويتاملها «هنا سبع لغات تاريخية».. هواية واحدة لا تكفي، والنوافذ كلها مفتوحة على الرغبة في معرفة القديم، المخطوطات تجر الى الوثائق، والوثائق تجر الى الصور الفوتوغرافية القديمة، وهذه تجر الى فن التصوير الحديث بلعبة الألوان والعدسات. وعندئذ لابد من الشعر، لكن قبل ذلك لابد من الشعر الشعبي المجهول قائله، وهكذا نصل الى العملات التاريخية وطوابع القرن الثامن عشر وبدايات هذا القرن، والوثائق التجارية ، ودفتر النوخذة. ونتعب فيضحك ابراهيم الهاشمي.

لا يتردد الهاشمي في الاعتراف بأنه حصل على معظم هذه الموجودات الأثرية من الأصدقاء، إذ تصل لغة التبادل بين الهواة الى مستوى رفيع.. وثمين ايضا. فمن هنا صورة قديمة، ومن هناك مخطوط شعري لشاعر منسي، بينما يوفر هامش السفر بعضا من العملات او الوريقات القديمة. لكن المصدر الأهم «الذي غرس بذرة حب القديم في نفسي هي امي، إذ تحفظ الأشعار

الشـعبية والمواويل والألغاز والامثال والفوازير وأغاني الاطف
الامـارات، ونسميها «المهاواة». وقد وجدت معها منذ الصغر
في التقليد والمتابعة وتسجيل ما أسمعه من أمثال وألغاز وأشـ

خليط عـجـيب من الهوايات، يشـغل ابراهيم الهاشمي، و
امـامـه آفـاقـا واسـعة على معرفة الحياة، ومعرفة الحديث أ
ويبـدو ان عـمليـة الجـمع لاتسـتـهدف الثروة بقدر ما تست
المعـرفـة. فثمة ماضيان للامارات: الأول تاريخي ضارب في
ومجهـول تمامـاً رغم محاولات بعـضـهم في العـثـور على ؛
الموجـودات الأثرية. والثـاني ماض قريب عمره ربع قرن أو
يصـور مـلامح الحياة في مرحلة ما قبل النفط او في اثناء ظه
وهذا الماضي مجهـول ايضـا لدى جيل اليوم، بينما يفرش ابر
الهاشـمي مئات الصـور القـديمـة التي تعكس حياة الامارات
اكثر من ثلاثين عاما: ساحات، وشخصيات، ووسائل نقل، وا
ومـدارس وبيـوت.. كلهـا تغيرت خـلال السنوات القليلة الماذ
لكأن ذلك الماضي القريب لايمت بصلة الى اليوم الحاضر.

يقـول الهاشمي: «عندي 150 صورة عن الراحل الشيخ ر
بـن سـعـيـد آل مكتـوم، تعكس تجـربة هذا الرجل، في بناء
وحـضـوره المتـواصل في مواقع البناء ومع الضيوف وشـخص
البـلـد. والـصـور جـزء من هوايتي حـيث قـادتني الى ان أ
كـاميرتي وأقف سـاكنا في ساعات مختلفة بانتظار لقطة غرو،
بزوغ، على سـاحل أو في صـحـراء، في حـديقة او على متن طا
حـتى اصـبح لدي عدد كبير من الصور دخلت فيها معارض
عدة».

ابراهيم الهاشمي مجموعة هواة في شخص واحد. ورغم قلة ما لديه من مقتنيات الا انه يعرف كيف يختار مادته، فالعملات مثلا قليلة، لكنها منتقاة من بين عشرات الآلاف من القطع المعدنية، انه يحتفظ بالقديم، الروماني، الفارسي، الاسلامي، واحيانا بعملات تنتمي الى القديم المجهول، لكنه قسم عملاته الى أقسام عدة، منها قسم خاص بالعملات المستخدمة في الامارات من مائة عام وهي: المرضوفة (عملة سميكة وثقيلة)، عملات الاشجار والحيوانات، العملات الهندية (بيزة، برغش) وهي عملة عمانية نسبة الى برغش بن سعيد احد حكام عمان، الريال الفرنسي (هكذا يسمى مع انه عملة نمساوية)، العملة البحرينية، عملات فيصل بن تركي من عمان. ولا يمكن فصل الهوايات عن بعضها، كما لا يمكن فصل الطابع عن العملة، والصورة عن الوثيقة، والمخطوط عن المطبوع الحجري القديم، ولذا يضع ابراهيم الهاشمي صورة الى جانب عملة «هذه الصورة الفريدة من نوعها، وقد حصلت عليها من الصديق طارق بن طوق والصورة للشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم ومعه الشيخ جمعة بن مكتوم، وحشر بن مكتوم، و «الطفل الصغير» خليفة بن سعيد آل مكتوم، ويبدو في الصور الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم وهو شاب، ومجموعة اخرى من الشيوخ والضيوف في لنجة. بينما حصلت من الصديق محمد ناصر على صورة نادرة للشيخ محمد بن صقر القاسمي وحوله ابناؤه راشد وصقر وخالد وعبد العزيز وسلطان (حاكم الشارقة حاليا) وعبد الله وحميد وناعمة وسعود بن سلطان»

لم تكن هذه الهواية ـ تحديدا ـ من دون أساس، فقد كان

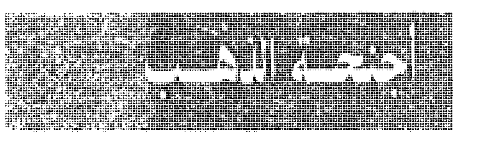
ابراهيم الهاشمي صحفيا لثلاث سنوات ضمن تجربة «الازمنة العربية». ومن هناك بدأت عملية الجمع حتى وصلت الى مستوى جاد، بينما افادته تجربته العملية حاليا في جمع مواد اخرى، كالعملات والطوابع والتحف. اما المخطوطات والمطبوعات القديمة والمصورات فهي قليلة، لكنها تميل الى الاهمية، وهذا بعضها: ديوان عبد القادر الجيلاني، الامام المعروف قبره اليوم في بغداد، وديوانه عبارة عن جزءين من الاشعار والتواشيح الدينية، كتب فقهية مخطوطة غير معروفة التاريخ والمؤلف، ديوان شاعر الامارات راشد الخضر بالفصحى والعامية، وهو مخطوط مصور حصل على صورة منه من الصديق نبيل العوضي، وديوان الشاعر العقيلي مخطوط مصور، والطبعة الاولى من تغريبة بني هلال سنة 1948 في مصر، ومجموعة اخرى من الكتب والمخطوطات والوثائق التي تتركز حول الشأن التجاري والرسم وجوازات السفر القديمة وصور الخرائط الخاصة بمنطقة الخليج والامارات. والطريف هو دفتر قديم كتب عليه عنوان «بيان حاصلة الغيص» وفيه مجموعة من الحسابات والديون، وهو كما يبدو دفتر النوخذة الذي يسجل فيه ما له من دين على كل شخص يخرج معه الى الغوص كدفعة اولى عن جهوده لاحقا. وحصل عليه من الصديق حمد حارب.

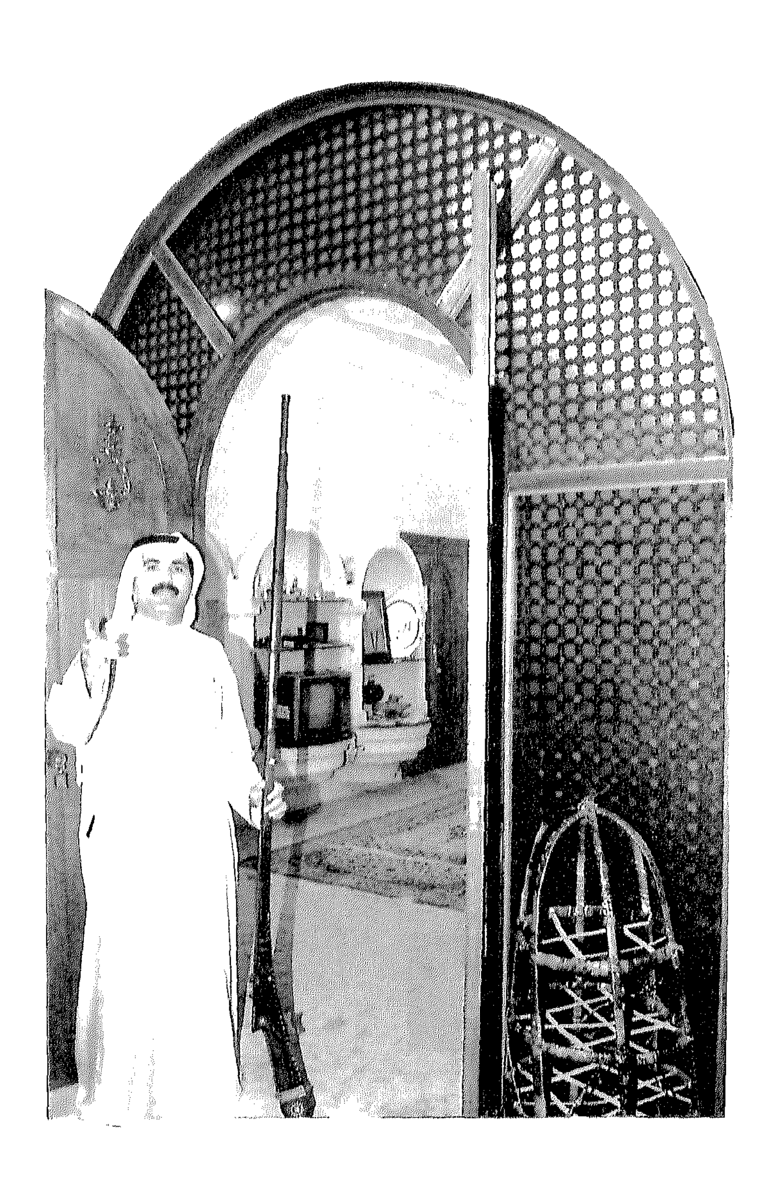
يقول ابراهيم الهاشمي: «ان التاريخ يتحدث جيدا بالصورة والعملة والوثيقة والخريطة ولا مجال للتحريف، ولذا فان من أبرز هواياتي ان اجمع الأمثال والألغاز والأشعار الشعبية القديمة. فهي تعكس حياة الماضي وتفاصيل العادات والثقافة

والاجـتماع، واعـمل على اسـتكمال مـا جمعت لاصداره في كتاب، خـصـوصـا وانني أملك الصـور التي ترافق الكلام، اي كل حالة معها صورتها».

هـل نـودع ابـراهـيم الهاشـمي من دون الاطلاع على الطوابع والتـحف ودفـاتر الشـعـر، ومـساهماته في شؤون أدبية، ورؤيته للساحة الثقافية بل ورأيه في الحياة عموما والشباب والمرأة؟ يبدو انـه لا بـد مـن ذلـك، فـغـرفـة المـجلس لا تطيق اجـتماع تاريخ وفضولي.■




اجنحة الحب



أجنحة الذهب

جناح من متحف، على طبق من ذهب، لا شائبة فيه ولاخمول. هذا هو سكن احمد محمد ناصر وعالمه المبني على مساحة عرضها العمر كله، من قال ان الماضي يضيع في مهب الزمن؟ هذه عدة الغواص، وتلك عدة الطواش، وعدة المحارب، والحلاقة والختانة، ومئات القطع الاثرية الموزعة على مناحي الحياة القديمة في الامارات ومنطقة الخليج العربي كافة.

هذه القطع تبدو في ألفة مع المكان الى درجة العيش المشترك، يتقاسم معها الهواء والحوار والوقت. يقدم ابنه بكلمتين «هذا ابني ناصر»، لكنه يقدم البندقية في شرح يطول مع شغف ومتعة الحديث عن الطول والسنة ومواد الصنع. هكذا ينبض قلب الهاوي، وخصوصا هاوي جمع التحف، الذي يمد يده الى التاريخ فيستخرج اللآلىء كأنه قادم الآن من موسم الغوص، يحكي الرحلة والتعب والمخاطر والمشاهدات ورفاق السفر والغربة، والمبالغ الباهظة: «اصرف ثلث راتبي في شراء التحف منذ سنوات طويلة».

ليس ثمة بداية لهواية احمد ناصر: «منذ طفولتي كنت اعيش مع التحف، جدي ووالدي من هواتها. في سوق الشارقة القديم كان محل جدي يشهد تجمع الاجانب الباحثين عن صندوق خشبي، قطعة منزلية، فخار، معدن، سرير، سجاد، حبال.. ووسط ذلك الشغف والبحث عن القديم بدأت اجمع لنفسي. لماذا لا تكون هذه القطعة عندي؟ ومن المنزل القديم اخذت الاواني البللورية ومنها كبر الطموح».

الجولة في المتحف الصغير ليست قصيرة، فكل قطعة تحكي تاريخا، ولا وجود لما هو رخيص أو عادي او حديث، والتواريخ بين الخمسين عاما والمائتين والألف. بماذا نبدأ؟ فرش احمد ناصر عدة الطواش (تاجر اللؤلؤ)، على الارض:

مجموعة الغربال من 1 الى 48 ومن 1 الى 75 غربالا حسب تسلسل سعة الثقوب، الميزان، احجار الوزن (من العقيق)، الكتاب وهو اشبه بدفتر حسابات فيه ارقام واوزان واسماء اللآلىء يحتكم اليه الطواش في تثمين اللؤلؤة. وقد وضعه التاجر سعيد بن محمد سعيد المدفع، وطبع في العام 1928 في مطبعة محمد عطا الله القاضي (الحجازية) في بومباي بعنوان «كتاب اللآلىء». هذه العدة كاملة تلف بقطعة قماش حمراء تسمى «الدستة». وتوضع في صندوق خشبي يسمى «البشتختة».

وفي زاوية اخرى لابد من عدة الغواص، يفرشها احمد ناصر على الارض، ويستحضر ذلك المغامر بيديه المعروقتين ووجهه الاسمر، الذي يجوب البحار بحثا عن لؤلؤة القلب: هذه صخرة

«البلت». وهي حجر ثقيل جدا كان يضعه الغواص في رجله لتسهيل عملية الغوص الى الاعماق، والفطام لسد الانف عن الهواء، والديين الذي يعلق في الرقبة ويوضع فيه المحار، والمفلق سكين لفلق المحار، والخبط بيوت جلدية توضع في الاصابع لحمايتها من المرجان والصخور البحرية اثناء تقليبها بحثا عن المحار.

بدقة متناهية وبتنسيق علمي يجمع احمد ناصر كل هذه الادوات، ويعرف تاريخها وقيمتها واستخداماتها، فيما يتعدى الهواية الى الدراسة والاستثمار: «هذا الاسطرلاب عمره 170 سنة، اشتريته بأربعة آلاف درهم. يومها قال لي صاحبي انت مجنون، وبعد ايام قدم لي احدهم عشرة آلاف درهم، لكنني اعرف بعد فترة كم يساوي». وعلى طريقة العرض الحديث، وضع احمد ناصر تحفه في خزانات خشبية مزخرفة بأبواب زجاجية، ووقف يشرح عن مراحل وتاريخ عشرات البنادق التي يصل طول بعضها الى اربعة امتار، معظمها مستخدم محليا في القرن التاسع عشر وبدايات هذا القرن، ومنها ما ظهر في لوحات المستشرقين الذين سجلوا حياة البداوة واسلحتها في الشرق. اما قسم الخناجر ففيه مجموعة من الاشكال حسب مكان الصنع سواء في اليمن ام عمان ام الهند، وإلى جوارها مجموعة السيوف ومن بينها سيف عماني «وجدته في بريطانيا وعملت المستحيل لاجلبه معي الى الامارات».

معظم التحف التي تحتاج الى معرفة دقيقة بتاريخها يصورها احمد ناصر ويبعث الصورة الى المتحف البريطاني مستفسرا عن مصدرها وتاريخها، واحيانا يعتمد على خبرته في معرفة قيمة المادة الحقيقية: «الكثير من التحف مزيف. هناك عملية تصنيع حديثة

تجرى في مناطق مختلفة في مصر والهند وسورية حتى تكاد القطعة لا تعرف اذا كانت قديمة ام حديثة. الا ان الممارسة والعلاقة الصحيحة مع الهواية تكشف الحقيقي والتقليد». ومن بين مجموعة الاسلحة يولي احمد ناصر اهتماماً بقطعة مهمة ونادرة غير موجودة في كثير من المتاحف المحلية وهي مسدس انجليزي استخدم في الامارات، ومثبت في كتاب دليل التحف الذي يرجع اليه الهاوي لمعرفة الصنع والمصدر والقيمة.

وعلى طرف آخر من المتحف الصغير مجموعة رفوف مكتظة بأجهزة الراديو حسب اجيالها المتعاقبة، تبدو كأنها لوحة عاجية من الازرار الكبيرة والاحجار والاشكال، بينما تحتل اعلى الجدار خريطة عن مغاصات اللؤلؤ في الخليج العربي، وضعها مانع بن سعيد آل مكتوم، وهو مؤرخ ورسام خرائط وبحار، كان بوصلة البحر وطرقه واتجاهاته، عرف بخبرته اماكن الغوص فثبتها في خريطة.

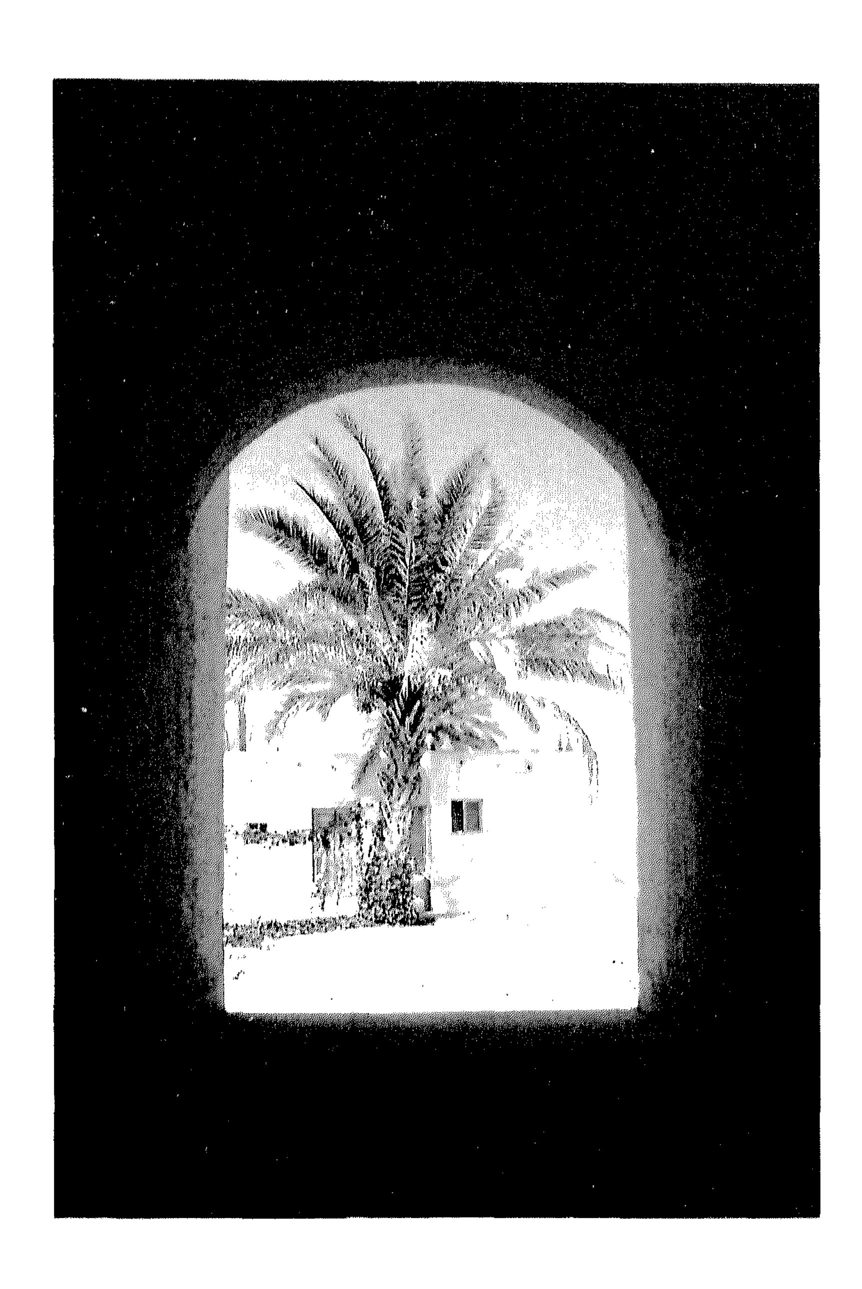
ويبدي احمد ناصر ندما على التفريط ببعض المواد في المراحل الاولى من عمر الهواية مثل «قدر حجري» بيع في العام 1972 بثمن بخس وهو اليوم في المتحف البريطاني، يشير اليه كتاب دليل التحف بأن سعره 50 ألف باوند، وكذلك السجادة التي باعها في العام 1971، والتي يصل سعرها اليوم الى المليون باوند.

وفي مقابل كل هذه المواد، يحتفظ احمد ناصر بقسم خاص للكتب القديمة، وعدد من قناني المشروبات الغازية في بدايات ظهورها والتي حملت اسماء غير موجودة الآن، وطرق تعبئة

تعتمد على الغطاء الذاتي.

هل انتهت الجولة في المتحف الصغير؟ جاء احمد ناصر يحمل صناديق الاسطوانات الغنائية القديمة لعشرات المطربين الراحلين «لدي حوالي ألف اسطوانة جميعها ينتمي للعشرينات والثلاثينات: الآنسة ام كلثوم، منيرة المهدية، سلامة حجازي، حضيري ابو عزين، عبد الله فضالة، محمد زويد و.. تركي، فارسي، هندي، وجهاز التشغيل القديم بابرته الماسية». ويبدو من الصعب استيعاب ما يحتويه المتحف من مجموعات، لكن من السهل الاشارة الى الجهود التي بذلها احمد ناصر منذ طفولته في جمع هذه الذاكرة الحية التي تستحق المتابعة والمقارنة مع المتاحف المحلية في الامارات.■

من جلفار الى رأس الخيمة



من جلفار الى رأس الخيمة

مئات السنين مكتوبة على ورق قديم وخرائط، من جلفار الى رأس الخيمة، في بيت شعبي يظلله بارجيل ونخلة، مكتوب على بوابته «مركز الدراسات والوثائق». في بيت قديم ترتفع فوقه البراجيل يقيم تاريخ جلفار، هنا في رأس الخيمة القديمة مجموعة بيوت تنفرد بساحاتها الوسطية وتلك النخلة التي تنثر رطبها في الظل، واحد من هذه البيوت هو بيت الشيخ محمد بن سالم القاسمي الحاكم الاسبق لامارة رأس الخيمة ووالد صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي الحاكم الحالي للامارة، هذا البيت اصبح اليوم مقرا لمركز الدراسات والوثائق، ومقرا للشاعر الفيلسوف الماجدي بن ظاهر، والبحارة الفلكي الرائد احمد بن ماجد وعشرات الاسماء والخرائط والعناوين وجغرافيا المكان والزمان بين حدود من المراحل التاريخية لا حدود لمعلوماتها وآثارها..

يتميز هذا المركز بتميز تاريخ الامارة والاحداث التي شهدتها، خاصة في القرن الثامن عشر الذي شهد اشرس المعارك ضد قوات شركة الهند الشرقية، وتعود معظم الوثائق والمخطوطات والصور والخرائط الى تلك الفترة حيث قام المركز في بداية تكوينه في العام

1986 بتجميع الوثائق التاريخية والمخطوطات والاوراق الخاصة بالامارة والمنطقة عموما التي امكن الحصول عليها وفق الامكانات المتاحة، وتمت ارشفة هذه الوثائق وتصويرها بالميكروفيلم سواء على بكرات أم بالميكروفيش حسب نوعية هذه الوثائق.

والى جانب الوثائق انشئت مكتبة للمراجع والمخطوطات المهمة للباحثين والدارسين والطلبة المعنيين بالدراسات الانسانية والدراسات ذات العلاقة بالأمارات. وفي المقابل دعا المركز كل من لديه مخطوطات ووثائق قديمة تحتاج الى صيانة ومعالجة من عوامل التلف الى التقدم للمركز للاستفادة من خدماته مجانا؛ حيث تتم صيانتها وتوثيقها ميكروفيلميا واعادتها لاصحابها..

ومن ابرز الاعمال التي قام بها مركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة تنظيم ندوة بعنوان الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والعلاقة بين الخليج العربي وشرقي افريقيا، وقد عقدت هذه الندوة في العام 1987 بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة بمعهد البحوث والدراسات العربية، وشارك فيها نحو ثلاثين عالما وباحثا قدموا مع غيرهم من الضيوف خمسة وثلاثين بحثا صدرت في كتابين؛ الاول بعنوان «الصلات التاريخية بين منطقة الخليج العربي والدولة العثمانية» والثاني حول «العلاقات التاريخية بين الخليج وشبه القارة الهندية».

ويمثل تاريخ رأس الخيمة تحديا لبعض الباحثين والعلماء في مجال التاريخ سواء من العرب أم الاجانب، ذلك ان هذا التاريخ

ظل مجهولا حتى بداية الثمانينات، ثم بدأ الاهتمام بعد ذلك يأخذ ابعاده من خلال الترجمة وجمع الوثائق ودراسة الاحداث ومجريات وتفاصيل الصراع على مياه الخليج وممراته.

ويذكر احد فصول هذا الصراع قصصا شغلت المهتمين بتاريخ رأس الخيمة منذ العام 1797، وفتحت الابواب على ترجمة المذكرات والدراسات، ومنها مذكرات فرانسيس ارسكين لوش قائد الحملة البريطانية التي غزت رأس الخيمة منذ حوالي قرنين من الزمان. «كانت قوة القواسم البحرية تتحكم في مدخل الخليج وتنطلق مهاجمة كبرى سفن شركة الهند الشرقية البريطانية، واستطاعت في صباح يوم من عام 1797 ان تهاجم الطراد الحربي فيبر وتجبره على الهرب، وفي العام 1804 استولت سفن رأس الخيمة على الطراد فلاي الذي كان متجها الى الهند، وفي العام 1805 استولت على سفينتين للمقيم البريطاني في البصرة واسرت الطراد سيلف ذا الثمانية مدافع بينما كان اسطول القواسم البحري يضم 60 سفينة كبيرة ومئات عدة من السفن الصغيرة لا يقل عدد من كان عليها عن عشرين الف رجل مسلح». ويشير قائد الحملة البريطانية في مذكراته الى اسماء وصور تخطيطية للبوارج التي شاركت في الحرب ومنها البارجة ليفربول المزودة بخمسين مدفعا التي اشتركت في قصف الموانىء في رأس الخيمة والشارقة وام القيوين وعجمان ودبي في العام 1819، وفي نفس العام احرقت البوارج مدينة رأس الخمية حيث يروي الكابتن لوش في مذكراته كيف ان البارجة التي كان يتولى قيادتها «ظلت تحرق سفن القواسم اينما وجدتها من عام 1818 وحتى نهاية 1819

عندما انضمت بعدها الى اكبر حملة شهدتها مياه الخليج، مكونة من البارجتين ليفربول وعدن وبارجة ثالثة وتسعة طرادات لشركة الهند الشرقية وعدد كبير من سفن النقل. وفي 30 نوفمبر 1819 تجمع هذا الاسطول أمام رأس الخيمة ذات السور المبني من صخر البحر والطين وبدأت مدافع الاسطول تصب نيرانها على رأس الخيمة التي كان يقود جيشها حسن بن رحمة القاسمي، حتى يوم 9 ديسمبر 1819 كانت النيران مشتعلة في كل مكان، وفي 13 ديسمبر اشعلت فرقة المهندسين البريطانيين فتيل الديناميت حول مباني وقلعة رأس الخيمة ولم يبق من المدينة سوى بيت حجري تركوه ليكون مقرا لهم».

واليوم في هذا البيت القديم الذي يشبه ذلك المقر تبدو اروقة المركز حافلة بالوثائق المهمة التي لا تقف عند مرحلة واحدة بل تشير الى عشرات الاسماء والمراحل والاضاءات التاريخية، يأخذ ابن ماجد حيزا مهما من هذه الكتب والوثائق ابتداء من نماذجه البحرية وادواته الاولى التي ابتكرها في رحلاته المتعددة وانتهاء بالدراسات المطبوعة التي قام بها المركز عن علوم ابن ماجد البحرية والادبية والفلكية، منها «ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي»، تأليف حسن صالح شهاب ضمن سلسلة الملاحة العربية الفلكية، ودراسات عن علم الملاحة ومساهمة ابن ماجد في تهذيب قواعد ونشاط العرب الملاحي في المحيط الهندي، وابن ماجد وجلفار وخرائط لرأس الخيمة وموقع آثار جلفار وخريطة نيبور للخليج العربي، وخرائط الرحلات في موسم الرياح الجنوبية الغربية والرياح الشمالية الشرقية.

يقـول الشـيخ سعود القاسمي رئيس الديوان الاميري ورئيس دائرة الآثار والتراث في رأس الخـيمة: « للمنطقة تاريخ مهم ولكنه للاسف غير مـدون، وقـد سـعـينا من خلال اقامة المتحف ومركز الـدراسـات الى جمـع مـا يمكن جمعـه ليكون مـادة قـريبـة من الدارسين والبـاحـثين وعموم الناس، ومن هذا العمل نحن نشجع الدارسين ونتواصل معهم في تقديم المعلومات عن هذه المنطقة التي كـان لها نفـوذ واسع في السواحل والجزر، وكان لها دور تجاري وصل بعـيدا الى افريقيا والهند والصين. كما اننا نحاول ان نختار عناوين لدراسـات حـول العـلاقـات البرتغـالية في الخليج العربي والعـلاقات مع الهند والدولة العثمانية، بهدف ايجاد مادة مكتوبة بين يدي القـارىء الذي ليس شرطا ان يكون اكـاديمـيا وانما لكل اولئك الذين يجهلون تاريخ منطقـتـهم، نريدها مـعلومـات سـهلة التـداول بين الطلبـة والاشـخـاص العاديين، اما في مجال عملنا في المتـحف فـاننا عـثـرنا على مناطق اثرية مهمة وحافظنا عليها من الامتداد العمراني».

وفي مجال انشطة مـركز الدراسات والوثائق يقول مدير المركز البـاحث احمد جـلال التـدمري «المركز يسير باتجاهين في عمليات نشـاطه حـاليـا، الاول النشـاط الثقافي والتراثي، وقد بدأنا باقامة الملتـقى الثـقـافي في الامـارة ويجمع الانشطة الثـقـافية في الاندية والمكتـبـات والهيئات الاخـرى، الى جـانب برامج الندوات التراثية والملتقيات العلمية على مستوى الخليج والوطن العربي».

وتضم مكتـبـة المركـز عـددا من الكتب التاريخية المهمة، يشير اليـهـا احمد التدمري «هذه اربعة مجلدات هي كل ما يتعلق بعلوم

ابن مـاجـد، هذه الشـخـصـية العلمية البارزة، حيث جمعنا تراث الرجل من خـلال الاتصـال بعلماء من آسـيـا الوسطى والمكتبات العـربيـة والاجنبـيـة مـثل الظاهرية في دمـشق ومكتبات فرنسية وبرتغالية ويابانية حول تراثه ومؤلفاته وحياته، فهو شاعر نبطي وبحار وفلكي ومثقف وواعظ».■

المعلم في مكتبة المحمود

المعلم في مكتبة المحمود

ليس ابقى وأجمل للمعلم من ان يظل اثره خالدا يتجدد. ذلك الدفق الحي الذي لا ينضب في المكان والزمان، منذ سقراط الى الحسن البصري الى طه حسين، حتى لكأن كل معلم على مر العصور هو رمز من رموز الضوء، من دونه تصعب على الانسان الحياة.

على هذا الطريق أسس المعلم الشيخ علي بن محمد المحمود خطواته الاولى في العام 1900، عندما انشأ في الشارقة المدرسة التيمية المحمودية، وجعلها مدرسة داخلية مجانية على نفقته الخاصة، فكان من بين طلابها ابنه عبد الله بن علي المحمود، الذي تحول في حياته العملية الى رمز آخر من رموز العلم والحضور الثقافي، حيث قضى حياته في خدمة المقاصد الخيرية ومساعدة الطلبة والمؤسسات التعليمية. ومن خلال هذه الاهداف، تولى الشيخ عبد الله المحمود منصب مدير عام الشؤون الاسلامية والاوقاف في الشارقة وعضو المجلس الاعلى العالمي للمساجد في مكة المكرمة، وعضو مجمع البحوث الاسلامية في الازهر الشريف.

تلك الحياة الزاخرة بالعطاء تركت اثرا واضحا في الساحة

العلميــة في الامارات، ومن بين علاماتها مكتبة الشيخ عبد الله بن علي المحــمــود، التي قامت على فكرة تكريم العلم والمعلم معا، حيث كــانت للشــيخ المحــمــود مكتبة خاصة في بيته تضم مجموعة من امــهــات الكتب في الفــقــه والتــفــسير والحــديث والتاريخ، وبعض المخطوطات والدوريات.

يقول الدكتور سالم بن عبد الله المحمود «عندما توفي والدي في العام 1982 فكرت بعمل ما، يكون استمرارا لعطائه وحبه للعلم، فأعلنت في مجلســه عن انشــاء مكتــبــة عامة تضم المكتبة الخاصة للوالد، ومــا يســتــجد لاحقا من اقسام وكتب. كانت الفكرة افضل هدية، واكــثــر صوابا في مجال تكريم تلك الحــيــاة الواسعة التي قضاها الوالد في عمل الخير».

المكان كــان مجلس الشــيخ المحــمود، ثم تحول الى مكتبة عامة فــيها صالة للقراءة، واقسام متعددة لمختلف فروع المعرفة، اضافة الى المكتــبة «السمعبصرية». وهو قسم حديث فيه عشرات الاشرطة الصــوتيــة وأشرطة الفــيــديو لمحــاضرات وندوات تقــام في المكتبة شهريا، ويدعى اليها عدد من رجال الفكر. وبعد الاعلان عن انشاء المكتــبــة تم افــتــتاحها في العام 1983 في حضور صاحب السمو الشــيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. ويشير الدكتور سالم بن عــبــد الله المحــمود الى ان «البداية لم تكن كما هــي اليوم، فعدد الكتب كــان قليــلا، وعندمــا اردناها مكتــبــة عــامــة كان لابد من الاضــافات السريعة والنوعية، وهذا لايأتي دفعة واحدة، فهي على حــســابنا الخــاص ونتحرك فيها حسب الامكانات المتاحة. الا انها اليــوم تضم حــوالي ســتــة آلاف مجلد في المجــال العلمي والثــقافي

والديني والتاريخي».

لم يكن عبد الله المحمود واحداً من المؤلفين بقدر ما كان داعما ومشجعا لحركة التأليف والكتابة والنشر. وعلى الرغم من ذلك ظهرت له كتيبات صغيرة تضمنت بعض آرائه في قضايا متعددة، منها كتيب «الاسرة السعيدة». لكن دوره كبير في بعض المشاريع العلمية، فهو رئيس لجنة ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية مع شروح مطبوعة ومسجلة على اشرطة «الكاسيت». هذا المشروع تبناه الشيخ عبد الله المحمود ونفذه مع نخبة من الاساتذة في الوطن العربي والعالم وطبع على نفقة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، ويوجد عدد من النسخ في المكتبة، اضافة الى عشرات التفاسير ذات الطبعات المبكرة التي تعتبر نادرة، ابتداء من اول تفسير للقرآن الكريم وهو تفسير الامام مجاهد بن جبر أحد تلاميذ ابن عباس، حققه الدكتور محمد عبد السلام، ويأتي بعده تفسير «جامع البيان في تأويل آي القرآن» لابن جعفر الطبري.

والطبعات النادرة القديمة في مكتبة المحمود هي من مكتبته الخاصة في حياته. ومن هذه الكتب ما يعرف بالامهات، في مجال علوم الحديث للبخاري ومسلم وابي داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة مع الشروح، إضافة الى مخطوطات مصورة لمسند الامام احمد بن حنبل ومسند ابي يعلي الموصلي. وتكاد المكتبة لا تخلو من الاساسيات التي وضعها رواد العلوم الاسلامية. أما الحديث فهو في طور التأسيس كما يقول الدكتور سالم المحمود. لكن القارىء لا يزال يعتمد في دراساته وبحوثه وثقافته على

امهات الكتب، حيث مجالات العلوم الاسلامية المتعددة، وحيث يزور المكتبة شهريا حوالي ألف زائر يقصدون هذه النوعية من الكتب وهي، مثلا في مجال الفقه، غير مقتصرة على جانب واحد، فهناك مؤلفات عدة في كل المذاهب من دون تحديد، سواء في مذهب ابي حنيفة: «كتاب شرح فتح القدير». لابن همام، أو في مذهب ابن مالك: «المدونة الكبرى» لابن انس، أو في مذهب الشافعي: «كتاب الام» لمحمد بن ادريس.

وينطبق هذا النوع على الاقسام الاخرى، خاصة في مجال التاريخ الذي يشمل كل البلاد العربية والاسلامية في عشرات العصور، اضافة الى كتب التاريخ القديمة مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي المتوفى سنة 1043ميلادية، وهو من الكتب المهمة عن سير الرجال ومن دخل بغداد من العلماء والشعراء والحكام.. وفي نفس القدر يأتي القسم الادبي في المكتبة، الا ان هذا القسم يعتمد على دواوين شعراء العصور الجاهلية والاموية والعباسية، وعدد قليل من المتفرقات الادبية في اللغة وعلومها والمختارات الشعرية، منها كتاب سيبويه، و «الاشتقاق» لابن دريد الازدي، و «المختارات الشعرية» لعلي آل ثاني وهو كتاب قديم طبع لمرة واحدة وبشكل متواضع لكنه يحتوي على مجموعة من القصائد المختارة لعشرات الشعراء القدامى.

ويقول الدكتور سالم المحمود «اننا نسعى للحصول على نظام الميكروفيلم الخاص بالمخطوطات القديمة، لتوسع قاعدة الخدمات التي تقدمها المكتبة لروادها، اضافة الى ان المكتبة تهتم بجمع عشرات الدوريات في الوطن العربي، حيث بلغ عددها حتى الآن

124 دورية نحتفظ باعدادها كاملة من الأول وحتى الآن، ومنها ما توقف عن الصدور، فعمدنا الى تجليدها وجمعها في مجلدات تسهل متابعتها من قبل المهتمين، الذين هم غالبا من جامعة الامارات والمعاهد وبعض دول مجلس التعاون».

وعلى الرغم من ان المكتبة لم تتوقف عند رقم معين في عدد العناوين الا ان اللافت هو عدم وجود قسم لبعض الكتب ذات التوجه العلمي العام في شؤون الحياة الطبية والاقتصادية والتكنولوجية وغيرها. فالاضافات تأتي دائما من خارج هذه الاجناس العلمية والمعرفية. الا ان الدكتور سالم المحمود يشير الى ضرورة سد هذا الفراغ قريبا، من خلال مكتبته الخاصة العلمية التوجه، فهو طبيب متخصص في العلاج بالابر الصينية ولديه عشرات المراجع في مختلف فروع هذا الاختصاص بلغات عدة. وقد حصل على البكالوريوس في جامعة موسكو، الا انه عاد الى الامارات قبل قيام الاتحاد وواجه الكثير من المصاعب، فاضطر للذهاب الى الكويت حيث عمل طبيبا في المستشفى الاميري هناك، ثم عاد الى الامارات بعد قيام الاتحاد ليصبح مديرا للطب الوقائي، ثم وكيلا لوزارة الصحة، ثم ذهب الى الصين مرتين للتخصص، لتبدأ بعد ذلك مرحلة العيادة الخاصة منذ العام 1976.

يقول الدكتور سالم المحمود «ان فكرة انشاء المكتبة لابد ان تكتمل من جميع الجوانب، واذا كانت اليوم بهذا الشكل الجيد من التنظيم والعناوين والمكان، فان المستقبل سيشهد مزيدا من التوسعة والاضافات لتكون حقا مكتبة لتكريم العلم والمعلم الوالد عبد الله بن علي المحمود».■

قلب بلون البصر

قلب بلون البصر

طفل ضرير، راسه مشرق بلون البصر! حملته كف القدر على بساط من ظلام، فصافحها بعد عشر سنوات بكف الصباح البيضاء.. ومن أين له غير حسن النوايا؟! انه محمد عبد الله عبد الرحمن، الولد الذي يرينا ارادة الله باذنيه قبل ان نراها باعيننا!

عشر سنوات وعينان مطفاتان، ياالله، كيف ستؤلف أيها الولد منظر العالم بسمعك، وتعيد ترتيب الوجوه والالوان والايدي كل لحظة في اذنيك؟! لم يعر محمد عبد الله عبد الرحمن اهتماما لمن حوله فها هو منشغل بتلخيص كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية». بعد ان قرأ صفحاته الاربعمائة في يوم واحد!

بدأت هذه الرحلة العجيبة يوم 11 / 6 / 1980. فقد كانت عائلة صغيرة في انتظار حدث سعيد في بداية تكوينها الاسري، وبينما يمتلىء قلب الاب عبد الله عبد الرحمن بنبضات الترقب امام باب المستشفى، جاءه الخبر: «انه ولد»، فقال: ليكن محمداً. لكن هذا الصغير كان عليه ان يستقبل سواد العالم منذ اللحظة الاولى، ليبدأ معه صراعا حادا شاءت ارادة الخالق عز وجل ان تجعله

صراع العظماء الذين يؤسسون كفتهم الراجحة تعويضا عما اصابهم.

قال لهم الطبيب: ان عيني محمد بدون غطاء اي ان العينين مفتوحتان دائما ما يلغي وجود الدموع والمواد الاساسية الاخرى وبالتالي فان الجفاف يصيبهما بالعمى.. اذن، لابد من غطاء لربما هناك أمل ببصيص.. وبدأت العمليات الدقيقة التي أجبرت الاب على حمل حقائبه بين المطارات منذ كان عمر محمد 25 يوما وحتى الآن. ظل الصغير من دون نظر ما عدا جزءاً يسيراً من خلال قرنية العين اليسرى، بينما ظلت اليمنى مطفأة. حاول الاطباء زرع غطاء للعينين من خلال قطع جزء من لحم جسمه، مع اعطائه الدموع الاصطناعية لكي لا يفترس الجفاف ذلك البصيص.. ومع فشل عمليات ترقيع القرنية فان الاطباء البريطانيين لديهم خطة طويلة الأمد لوضع حل لهذه الحالة: «لكن الامكانات بسيطة ووزارة الصحة أوقفت العلاج في الخارج وبقي محمد على حالته».

ذلك مايقوله الاب عبد الله عبد الرحمن الذي لم يستسلم لطالعه وعزلة محمد فكان صديقه الوحيد، يصحبه معه في كل مكان، ويتحدث معه حديث الكبار ذوي الرأي والموقف.

«حياته خالية من أي نشاط سوى القراءة، فهو يلصق الكتاب بعينه اليسرى، وبعد ساعات يلخص ما قرأ مع رأي بالمضمون ومناقشة للمغالطات خاصة فيما يتعلق بالتاريخ، وحين يمل من الكتب، يلجأ الى الاذاعات، فتراه منذ الصباح ملتصقاً بالمذياع

الصغير، ويتحدث عن اذاعات لم نسمع بها، اذاعات باللغة العربية في الصين والهند وبلغاريا والمانيا واليابان وكوريا والبيرو، كلها يعرفها ويعرف اوقات البث والصوت والمضمون والاهداف والبرامج الموجهة.. ولا علاقة له مع الصغار واكثر تواصله مع الكبار، فعندما يلتقي احدهم يسأله عن بلده وطبيعة الحياة فيه ويستفسر عن معلومات عامة تظل معه دون نسيان».

في التاريخ يتحدث محمد وكأنه خارج للتو من قاعة المحاضرات في الجامعة، بين يديه احد اجزاء «دليل الخليج» للبريطاني لوريمر.

ما رأيك بهذا الكتاب يامحمد؟

«كتاب جيد يتحدث في قسمه الجغرافي عن مناطق الخليج وكأنه مفتاح للقسم التاريخي الذي يتناول المناطق والقبائل من القرن السابع عشر الى اوائل هذا القرن «1907» لكنني لا أثق جدا بهذا الكتاب لأنه خاص بالمصالح البريطانية وهو من وجهة نظري كتاب من الخارج، اضافة الى وجود تهجم ضد العرب من ناحية وصفهم بالقراصنة والغجر، لذلك فإنني اقرأ ما يهمني واعرف مدى صحته، وصدقه..»

ذلك هو محمد بسنواته العشر وعينيه المطفأتين.. يحاور في كل شيء من دون حدود، ويتحدث في التاريخ والاقتصاد واللغات والادب على طريق قهر الظلام، فهو قاهر الظلام فعلا كما يصفه ابوه عبد الله عبد الرحمن.

«منذ كان عمره سنتين بدأنا نقرأ له قصص الاطفال وهو في المستشفى، بعدها سجلنا له تلك القصص على الاشرطة وبدأ يتعلم

الارقـام حتى اصبح جيدا في الرياضيات، يتدخل محمد في الحديث ويطلب امـتـحـانه في عـمليـات الجـمع والطرح والضرب السريعة والآنيـة في مئات الآلاف». بعـد ذلك كـان لابد من الكمبيوتر حتى أذهل مـركـز تأهيل المعوقين في دبي الذي يدرس فيه، رغم ان هذا المركـز لا يشـجـعـه كـثيراً، فـقـد كـان يظن انه مكان ينطلق فيه ويمارس حـريتـه كما يشـاء، لكنه فوجىء بضرورة ان يكون ذلك الولد المطيع الهادىء، بينما هو مـعـتاد على الكبار والحديث معهم: «وذلك مـالم يحصل مع المدرسين في المركز.. انه شغوف بالمعرفة، ويحب ان يسـتـفـز الآخـرين، فلم يعجبهم الوضع على اعتبار ان الطالب المثـالي هو المطيع والمسـتـسلم، ومع الوقت ساير هذا الجو رغم تفـوقه الاستثنائي وقدراته واستعداده لان يكون في يوم من الايام انسانا مهما في مجال المعرفة، واعتقد انه التاريخ الذي يبدي فيه تفوقاً من الآن».

وعلى الرغم من مـقـاطعـة محمـد لابيه قائلا: «اريد ان اصبح رحـالة في المسـتـقبل»، فانه يميل للتاريخ، وما رغبته في ان يكون رحـالة، الا نتـيـجـة قـراءة كـتاب ابن بطوطة وكتاب «العالم بين يديك». انها محاولة رؤية العـالم بما فـيـه من مـاض ومـستقبل، «أحب التاريخ، واحب الرياضيات، لكنني اكره الجبر لانه غير مفيد في الحـيـاة، ومع هذا لجأت مـؤخـرا الى اللغـات وطبيعة الشعوب وعـرفت ان عـدد لغات الهند 700 والصـين 700 ومفردات عديدة بالألمانيـة والفـرنسـيـة والاسـبـانيـة والانجليـزية، واعـرف ان اليـوغـسلاف يتحدثون العربية، وبوليفيا.. الاسبانية والبرازيل.. البرتغـالية، اما كندا فكل اللغات لانه بلد يحتوي على شعب مهاجر

غير اصيل، اما اشهر لغات الهند فهي.. الأوردو والجامو والراجستاني».

محمد.. انت تغرينا على السؤال بشكل اعمق.. كيف ترى العالم اليوم؟

ـ «لقد أعجبتني التحولات السياسية في أوروبا التي بدأت من بولندا، وارى العالم في صراع دائم بين قوتين، لكن القوة الكبرى هي التي تنتصر رغم كل شيء ودون النظر الى انها خيرة او شريرة! والدليل ان الذي يقود العالم اليوم اسرائيل واميركا والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، وهناك قوة اخرى هي اوروبا الموحدة قريبا!».

وماذا بعد عن العالم والمستقبل؟

ـ بعد 500 عام سيحكم الكمبيوتر العالم، والانسان سيكون معطلا، لا يستطيع ان يفكر، بل ان الكمبيوتر هو الذي يفكر عنه وله، حتى ان شكل الحروب سيتغير..

أحاديث كثيرة في الرياضة والانساب والدين، من مضر، الى ربيعة، الى الخليج والصراعات، ومن بابل الى الفراعنة، ومن الكهوف الى القصور، كيف لنا ان نثبت للناس انك أنت صاحب هذه المعلومات ولسنا نحن؟

«قل لي أنت كيف اثبت لهم ذلك، وسأفعل»! لم يكن محمد ـ وهو يتحدث ـ جالسا بهدوء، بل يتحرك في المكان بطفولة، غير أن لسانه حاضر ينطق بكل ما هو كبير وواسع لكأنه موسوعة

معرفية، صفحاتها مملوءة بكل شيء، ينظر اليه عبد الله عبد الرحمن متمنيا المزيد من القول، لكن محمد يراعي مزاجه كثيرا، فلا يجامل ولا يخفي انه في تلك اللحظة او هذه، لا يريد الانسحاب مع احد، أو أنه في جو مخالف لما نريد! لا تغريه - مثلا - لعبة تفسير الاحلام، ويقول ان هذه خرافات..

عشر سنوات وعينان مطفأتان و75 كتاباً حتى الآن قرأها محمد الذي يقف الى جوار أبيه سائلا عن هذا وذاك، وفي رأسه الصغير محتوى آلاف الصفحات من كتب التاريخ: المعتزلة، الشرطة في مصر الاسلامية، تاريخ الخلفاء، غرائب العالم، أنساب العرب، وكل التفاصيل عن منتخب الامارات لكرة القدم، وبرامج الكمبيوتر والاذاعات و 71 خليفة في الاسلام.. هل هناك شكل لقهر الظلام اكثر من هذا؟ محمد عبد الله عبد الرحمن، الولد الضرير، أبيض القلب، عيناه أذناه، وغده مشرق بلون البصر.■

الفهرس

اصدارات اتحاد كتاب وأدباء الامارات

اصدارات اتحاد كتاب وأدباء الامارات

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	السعر بالدرهم
المنشورات الشعرية			
■ قصائد من الامارات	لعدد من شعراء الامارات	1986	15
■ صلاة العيد والتعب	عارف الخاجه	1986	10
■ شدو الزمن	سلطان خليفة	1988	15
■ مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور	سيف الرحبي	1988	12
■ جغرافية الفردوس	جعفر الجمري	1988	8
■ وردة للوطن.. وقبلة للحبيبة	عمر ابوسالم	1989	12
■ هذا هو الساحل.. اين البحر؟	مؤيد الشيباني	1989	12
■ بحثاً عن النهر	رافت السويركي	1989	12
■ علي بن المسك التهامي يفاجيء قاتليه	عارف الخاجه	1989	15
■ الفالس الاخير في سنتياجو	أرييل دورفمان ترجمة:كامل يوسف حسين	1990	15
■ آية للصمت	ظاعن شاهين	1990	12
■ الشيطان وقصائد اخرى	لير مونتوف ترجمة:رفعت سلام	1991	12
■ ليجف ريق البحر	ثاني السويدي	1991	12
■ شيء من السهو في رئتي	جعفر الجمري	1992	15
■ ديوان سلطان العويس	سلطان العويس	1992	40
■ بانتظار الشمس	صالحة غابش	1992	15
■ استحالات السكون	ناصر جبران	1993	15
■ مسارات	حمدة خميس	1993	15
■ ديوان سالم العويس (نداء الخليج)	تحقيق: د. محمد حور	1994	30

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	[illegible]
[illegible]			
■ كلنا.. كلنا.. كلنا نحب البحر	لعدد من كتاب الامارات	1986	[illegible]
■ السمكة الصغيرة	صمد بهرنجي ترجمة/ علي عبدالعزيز الشرهان وعمر عدس	1986	[illegible]
■ اطفال آخر الزمان	عزيز نيسين ترجمة/ عمر عدس	1987	[illegible]
■ الرجل العاشر	غراهام غرين ترجمة/ مصطفى كمال	1988	[illegible]
■ الارواح تسكن المدينة	انور الخطيب	1988	[illegible]
■ فيروز	مريم جمعة فرج	1988	[illegible]
■ 12 قصة قصيرة	لعدد من الكتاب	1989	[illegible]
■ الرحلة العجيبة	شوساكو اندو ترجمة/ [illegible]	[illegible]	[illegible]
■ ميادين	ناصر جبران	[illegible]	[illegible]
■ الطحلب	ابراهيم مبارك	[illegible]	[illegible]
■ عندما تدفن النخيل	ناصر الظاهري	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible] ترجمة/ كامل [illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible] الثلج	ابراهيم مبارك	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible] ترجمة/ [illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	[illegible] ترجمة/ مصطفى [illegible]	[illegible]	[illegible]
■ [illegible]	علي عبدالعزيز الشرهان	[illegible]	[illegible]

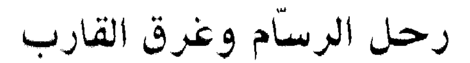
اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	السعر بالدرهم
■ الرفض	عبد الرضا السجواني	1993	15
■ الرحيل	شيخة الناخي	1993	15
■ على حافة النهار	عبدالحميد احمد	1993	15
[illegible]			
■ معجم القواق والالحان	د. فالح حنظل	1987	20
■ ابحاث الملتقى الاول للكتابات القصصية والروائية في دولة الامارات	عبدالحميد احمد - رعد عبدالجليل - يوسف خليل - اسامة فوزي	1989	12
■ فنجان قهوة (نفدت الطبعة الاولى)	عبدالله عبدالرحمن	1989	20
■ الاتفاقيات السياسية والاقتصادية التي عقدت بين امارات ساحل عمان وبريطانيا	علي محمد راشد	1989	25
■ ندوة الادب في الخليج العربي ج1	عدد من المؤلفين	1990	15
■ ندوة الادب في الخليج العربي ج2	عدد من المؤلفين	1991	12
■ ندوة الادب في الخليج العربي ج3	عدد من المؤلفين	1991	15
■ ندوة الادب في الخليج العربي ج4	عدد من المؤلفين	1991	15
■ الصراع حول مضيق هرمز	عبيد طويرش	1990	15
■ تحولات اللغة الدارجة	علي عبدالعزيز الشرهان	1990	15
■ [illegible] احمد بن ماجد	تحقيق: حسن صالح شهاب	1991	15
■ [illegible]	د. محمد المطوع	1991	25
■ الحداثة الاولى	محمد جمال باروت	1991	20
■ [illegible]	سيف الرحبي	1992	20
■ [illegible] والروائية في دولة الامارات ج1	عدد من المؤلفين	1992	15

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	السعر بالدرهم
■ ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية والروائية في دولة الامارات ج2	عدد من المؤلفين	1991	20
■ ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية والروائية في الامارات جـ3	عدد من المؤلفين	1992	15
■ ديوان الشيخ محمد بن احمد الاصبعي	د. وليد محمود خالص	1992	15
■ السكون المتحرك ج 1 «بنية الايقاع»	علوي الهاشمي	1992	60
■ السكون المتحرك ج 2 «بنية اللغة»	علوي الهاشمي	1992	60
■ الشعرية الاوروبية وديكتاتورية الروح	ترجمة/ ظبية خميس	1992	15
■ ابحاث الملتقى الثالث للكتابات القصصية والروائية في الامارات ج1	عدد من المؤلفين	1993	20
■ ابحاث الملتقى الثالث للكتابات القصصية والروائية في الامارات ج2	عدد من المؤلفين	1993	15
■ ابحاث الملتقى الثالث للكتابات القصصية والروائية في الامارات ج3	عدد من المؤلفين	1993	25

ادباء وكتاب من الامارات

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	السعر بالدرهم
■ سالم بن علي العويس	عبدالاله عبدالقادر	1988	20
■ سلطان العويس تاجر استهواه الشعر	عبدالاله عبدالقادر	1988	15
■ الشاعر الجامح خلفان بن مصبح	شوقي رافع	1992	12
■ الماجدي بن ظاهر	د. فالح حنظل	1992	15

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ النشر	السعر بالدرهم
تراث وفنون:			
■ الالعاب والالغاز الشعبية في الامارات	نجيب الشامسي	1991	15
■ الندوة العلمية لاحياء تراث ابن ماجد	الجزء الاول	1991	20
■ الندوة العلمية لاحياء تراث ابن ماجد	الجزء الثاني	1991	20
المسرح			
■ تاريخ الحركة المسرحية في الامارات 1960/1986(نفدت الطبعة الاولى)	عبدالاله عبدالقادر	1987	19
■ رؤوس الآخرين	مارسيل ايميه ترجمة/حسيب كيالي	1992	15
■ الرحيل وملك ليوم واحد	نواف يونس	1992	12



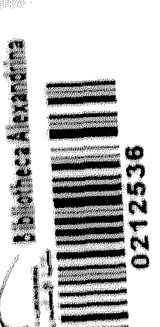
محني الظهر، يجلس عند الساحل في «مساءات» خورفكان، بيده فرشاة وعيناه على قارب «النور» وحوله غرباء لا يعرفهم، ويبدأ الرحيل في خطوط اللون والطبيعة.

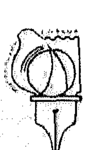
ذلك الرسام المجهول الذي يملأ الميناء سكونا وهو ينقل شموخ القارب على خشبة مستطيلة، لا ينتظر كثيراً لكي يبيع لوحته. فالغرباء الذين لا يعرفهم واقفون حوله في انتظار اللمسات الاخيرة، ثم تغيب اللوحة من دون توقيع او تاريخ.

مات الرسام، وغرق القارب، وبقيت اللوحات معلقة على جدران الارض. هل يعرف احد ذلك الرسام؟ قال بعضهم: خلفان محمد علي مفتاح يعرفه.

في غرفة خضراء اللون، منزوية تحت الجبل، بدا خلفان محمولا على مائة عام، ينتظر فتيان الحارة؛ يجلسون و رجليه. ثم من دون سؤال او نظرة او حركة، قال بـ مرتجف وبعيد:

«كان شعرهم أحمر، وملابسهم حمراء، وعلى رؤ أغطية سوداء، قتلوا الناس ودارت معركة، ووضعنا الـ الحفر، ورجالنا يقاتلونهم حتى هزموهم الى البحر».





منشورات اتحاد كتاب وادباء الامارات
هاتف: 364404 فاكس:364409
ص.ب: 4321 الشارقة ـ ا.ع.م